سادة القافلة (3)

تحيا كتيبة كميل

شبكة المعارف الإسلامية
الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org
مركز نون
للتأليف والترجمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام

هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠

ص.ب. ٢٤/٥٣ . ٢٥/٣٢٧

الكتاب: تحيا «كتيبة كميل»

الكاتب: محسن مطلق

ترجمة وإعداد: مركز نون للتأليف والترجمة

نشر: جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافيّة

الطبعة: الأولى، أيلول ٢٠١٣م - ١٤٣٤هـ

سادة القافلة (٣)

تحيـــا

«كتيبة كميل»

مركز نون للتأليف والترجمة

تقديم

أن يقوم مقاتل شارك في جبهات القتال بكتابة مذكّراته، مستذكراً أحداث المعارك ومشاهدها وشجاعة إخوانه الشهداء وتضحياتهم وعذوبة رفقتهم، لهو بمثابة معركة أخرى ونصر آخر يسطّره في الخندق نفسه ومع الرفاق الذين سبقوا أنفسهم.

هو مجاهد كان ينتظر بشوق بدء العمليات والشهادة وتجرع عذوبة كأسها مع كل هجوم وكل طلقة...

وقد يندر أن يكتب مجاهد مشاهداته الحية بأسلوب، تخال نفسك مشاركاً معه تشعر بآلامه وآماله ومحبته؛ لكن «**محسن مطلق**» كتب خواطره هذه بأسلوبه العذب - كما حصلت وكما شعر بها-، مبرزاً تضحيات رفاقه، راوياً مشاهد وألوان الشجاعة والإيثار، والفكاهة والمحبة والعشق في آن.

كتب محسن مطلق: «**مشاهد مفعمة بالإخلاص، وغالباً ما أخفى نفسه خلف أصحابه الشهداء تواضعاً**»، كما عبّر الإمام القائد

الخامنئي دام ظله في تعليقه على الكتاب عندما قرأه.

كتيبة كميل! إحدى الكتائب التي أوكلت إليها مهمّات صعبة وكان لها دورها الطليعي في جبهات الوسط والجنوب (مهران -كرخة- أم القصر..) أثناء الحرب المفروضة على الجمهورية الإسلامية.

جبهة أضحت -كما عبّر الإمام الخميني قدس سره- متراساً للدفاع ومحراباً للعبادة وموئلاً للعشق ومظهراً ساطعاً من مظاهر الإخلاص التي يندر وجودها إلا في الجبهات وتحت ظلّ السيوف.

يفخر مركز نون للتأليف والترجمة أن يُقدّم الإصدار الثالث من سلسلة «**سادة القافلة**» الذي يُشكّل بارقة حيّة متلألئة، يرويها المجاهد نفسه الذي اختاره الله ليحكي عن رفاقه الشهداء.

ويشكر المركز كل من ساهم في إنجاز هذا العمل ويخصّ بالذكر الدكتور «**محمد عليق**» الذي نقله من اللغة الفارسية إلى العربية. سائلين المولى تعالى النصر للمجاهدين ودوام العزّة لهذه الأمة.

مركز نون للتأليف والترجمة

مقدّمة المؤلِّف

قال الإمام الخميني قدس سره:

نحن، في الحرب، صدّرنا ثورتنا للعالم.

في أثناء الحرب، أثبتنا مظلوميّتنا وجور الأعداء.

في أثناء الحرب أزحنا قناع الزيف عن وجوه الطامعين في هذا العالم

في أثناء الحرب عرفنا عدوّنا وصديقنا.

في أثناء الحرب ثبّتنا جذور ثورتنا الإسلامية المثمرة.

كانت حربنا حرب الحقّ والباطل، وهي لا تنتهي أبداً.

كانت حربنا حرب الإيمان والشرّ، وهذه موجودة منذ آدم إلى آخر الحياة.

ما أقصر نظر القائلين إنَّه ما لم نصل إلى طموحنا النهائي، فلا فائدة من الشهادة والشهامة، ومن الإيثار والتضحية والصمود.

نحن لسنا نادمين على الحرب، ولو للحظة واحدة.

وهل نسينا أنّنا حاربنا لأجل أداء التكليف، ولا علاقة لذلك بما ينتج عنه؟

كان هذا الكلام للإمام الذي أعطى لقلوبنا المحترقة والمتألّمة السكينة والخلوص، وقد كنت أعتقد أنه وحتى ظهور الإمام المهدي عجل الله فرجه سأبقى حاملاً إما للسلاح أو القلم، وفي الأيام الأخيرة من الحرب، عندما ذهبت لتسليم سلاحي في «**دوكوهه**»، كان عليّ أن أتوجه إلى مركز الدعم لأخذ قلمي كي أدافع به عن القيم التي اكتسبتها من جهادي.

كنت أتمنى أن يكون علمي أكثر، كي أمسك بقلم أكبر، وأفضح به بشكل أفضل حياة عبيد الهيمنة والمفتتنين بالذهب.

لكن ما العمل، إن كان قلمي كنخيل خرمشهر، مكسوراً، ولا قدرة له على تقدير الشهداء الساكنين في قلبي مع جعب ذكرياتهم الممتلئة.

بما أن أصدقائي الشهداء هم الأكثر مظلومية، ورفاقي الراحلين هم الأكثر غربة، وهم الذين وطأوا التراب لعدة صباحات فقط، ثم رحلوا، قررت أن أسكب بضع قطراتٍ من بحار حلمهم ونخوتهم على هذه الأوراق، كي يتذكّر المستأنسون بالعشق، من خلال استشمام تلك اللحظات، أيام الجهاد والشهادة ويسيروا إلى تلك الديار.

لكنّني لا أعرف إلى أي حدٍّ استطعت النجاح في هذه المهمة.

والأمل دوماً أن لا ننسى أحداً من رفاق السلاح.

محسن مطلق

صيف ١٩٩١م

«دو كوهه»

لم تمض سوى بضعة أيام، لا أكثر، على تركنا طهران. كان طقس «**دوكوهه**»[1] جميلاً ومنعشاً. كانت كتائب الجيش كافة – وبعد تحرير الفاو– قد ذهبت في إجازات، أو استقرّت داخل المعسكر، تتفيّأ بمظلة المعنويات.

كنتُ و«**عباس يكانه**» نتمشى في المعسكر، عندما تهادى إلى أسماعنا خبر إعادة تشكيل «**كتيبة كميل**»، بعد سنة من حلّها. فور انتشار الخبر، تجمّع الشباب القدامى، وما أجمل جمعتهم، كنت وعباس بينهم، وقد تسلّم الأخ «**شاهسفند**» قيادة الكتيبة هذه المرّة. في التقسيمات الجديدة، كنا أنا والأخوان «**عباس**» و«**تيموري**»، مساعدي رُماة للأخ «**درفشي**»، وبدأنا نخدم في «**الفصيلة الأولى**» من سرية الشهيد «**مدني**».

---

(١) أحد المقرّات العسكرية الخلفية المشهورة، أثناء الحرب المفروضة، لتشكيل الفرق القتالية، وتبديل الألوية، والكتائب، ويقع في الجبهة الجنوبية (خوزستان).

كان لوجود البعض في سريَّتنا، التي تضم ٧٥ مقاتلاً، الأثر الجيد والمريح لنا، من بينهم «**شاداب**».

كان الأخ «**شاداب**» من أقدم شباب الحرب، وهو من «**خرّمشهر**»، إحدى عينيه «**اصطناعية**»، ولم يكن هناك أي جزء من جسم هذا العبد الصالح سالماً، وكانت لهجته «**الخرّمشهريّة**» الجميلة تجعله محبوباً أكثر فأكثر.

كان الأخ «**رنجه**» مسؤول فصيلتنا، وهو من «**عبادان**»، وعلى الرغم من أن لهجته ليست عبادانية، إلا أنه جميل البيان والكلام.

في الصباحات المعدودة التي قضيناها في معسكر «**دوكوهه**»، كنا نستيقظ على صوت مناجاة الأخ «**نورايي**»، وبعد الوضوء، نتجه إلى حسينية الشهيد «**همت**»، وعلى الرغم من الوقت الذي ما زال يفصلنا عن الأذان، إلا أنّ الحسينية كانت تمتلئ بالمصلين، وكذلك المكان من حولها، وكأنّهم كانوا يحيون الليل جماعة.

يفوح في الأجواء عطر الورد الجوري، الذي ينبعث من سجادات الصلاة، التي هي جزء من التجهيزات الشخصية للكرام.

كل زوايا الحسينية تشهد عليهم، فهنا زاوية القانتين، وهناك زاوية الساجدين، هنا شاب يُمرّغ جبهته بالتراب، ونحن الشاكرون نعمة وجودنا هنا.

عندما يقترب موعد الغروب، ينطوي كلٌّ منا على نفسه، وكلما

غربت الشمس أكثر، ينقبض القلب أكثر لذكرى الرفاق المهاجرين... وإذا ما غربت، تطير قلوبنا من مكانها، وبانتظار الأذان، الذي ينفخ فينا الروح، يصعب منع عيوننا عن البكاء...

ما أجمل هذه المناظر! التي لم يَرَها قبلاً أحدٌ قطّ، ومن يدري متى يمكن أن تتكرّر...

شبابٌ في مقتبل العمر - أترابهم في المدينة ما زال يأخذ مصروف جيبه من والديه - يتحوّلون إلى أسود النهار وزهّاد الليل.

بعد صلاة المغرب والعشاء، يترك الجميع الحسينية، ويتّجه كلٌّ نحو رفاقه...و نحن منهم.

جلسنا حول سفرة العشاء في مبنى كتيبتنا، وتهادى صوت دعاء الطعام بعد الصلاة على محمد وآل محمد: «**اللهمّ ارزقنا رزقاً حلالاً...**»

كان «**مهدي صابري**» يعدّ الملاعق التي يأكلها، فعدد ملاعقه يحدّد له طريقة استيقاظه ليلاً، سبعة أو ثمانية، لا أكثر، وإلا خسر صلاة ليله. وكان البعض لا يتناول العشاء أبداً. كان أهل المدينة يودّعون السّحر بعد شهر رمضان، ولكنَّ أهل مدينة الحبّ هنا... لهم حساباتهم مع السَّحر... غير التي لنا.

صبيحة أحد أيّام «**الجمعة**»، والضباب يُغطّي الثكنة، توجّهنا

مع بعض شباب فصيلتنا إلى «**الحمّام**»[1] الذي يتحوّل بمزاحنا وطرائفنا إلى جوقةٍ صاخبةٍ لا تخلو من ذكر الله، الذي لا يغفل عنه الشباب، فيذكّر بعضهم بعضاً بغسل الجمعة، فما أجمل كسب رضاك يا إلهي، حتى في أكثر الأوقات مرحاً ومزاحاً.

على الرغم من الصباحات القليلة التي مضت على تشكيل الكتيبة، وانضمام العديد من الشبّان الجدد إلينا، فقد زال الإحساس بالغربة بيننا، وكأنّ قاصدي كربلاء، قد التقت قلوبهم معاً منذ زمن، فاستأنس بعضهم ببعض.

بعد مدّةٍ، تسلّمت كتيبتنا مأموريّة الدفاع عن خطّ «**مهران**»[2]، فاستعدّ الشّباب لاستلام المعدّات، ولأنهم بدأوا يشمّون رائحة الجنّة، اغتسلوا غسل الشهادة للمرّة الأخيرة في «**دوكوهه**»، وكان حديث الشباب الوحيد عن مدينة «**مهران**» وذكرياتها القابعة في قلوب السائرين إليها.

بعد العرض العسكري الليلي، أطلّت الحافلات، وكان صوت الأخ «**آهنكران**» يسبقها إلينا، فتضاعفت المعنويات.

اصطففنا، مستعدّين للصعود، ولم يتوقف الأخ «**شاهسفند**» عن توصيتنا للمرة الأخيرة.

(١) ـ مكان مخصّص للاستحمام لعموم الأفراد، وكان معروفاً في إيران، ولا يزال، ولكن على نطاق محدود.. وكان موجوداً أيضاً في الثكنات، والمعسكرات في الجبهة.

(٢) ـ مهران: ممر ومنطقة حدودية بين العراق وإيران، إحدى المواقع الاستراتيجية التي دارت فيها معارك طاحنة إبان الحرب المفروضة.

بعد ذبح عدد من الخِراف السّمينة تحت أقدامنا، استقلّت الفصائل الحافلات، الواحدة تلو الأخرى.

وكالعادة، توقّفنا عل مرتفع لنودّع أبنية «**دوكوهه**»، وها هي «**مهران**» تستقبلنا بذراعيها المفتوحتين.

عند الغروب، وصلنا إلى محطة «**سنكشكن**»، استقلّينا شاحنات الـ«**تويوتا**» التي ستنقلنا إلى الخط الأمامي، ولأنني كنت سابقاً في «**مهران**»، لم أستطع أن أمنع سيل الذكريات الذي اقتحمني عندما لاحت تلالها أمامي، وبدأت وجوه الرّفاق الذين ودّعونا تمرّ أمام ناظري.

كانت الشمس تودّعنا، وطريق «**قلعة فيزان**» تودّع حافلاتنا، دقائق معدودة تفصلنا عن الخطّ الأماميّ، ترجّل الشّباب، وبدأوا يعانقون المستقرّين هناك منذ شهرين، العجب أن لا غرباء بيننا، إذ كان الجميع يتعانقون دون رياء، ودون معرفة سابقة، فالمهم هو رفقة الجهاد والنّخوة.

توجّه شباب كتيبة «**السيد عبد العظيم**» إلى «**دوكوهه**» في إجازة، ليتركوا لنا أماكنهم في الخط.

كان «**أبو الفضل إسلامي**»، مسؤول سريّتنا، قد سبقنا قبل عدة أيام، ليستكشف المنطقة، فكان بانتظاره لغمٌ قطع قدمه، اضطرّه للرجوع إلى طهران للعلاج، واستلم المسؤولية مكانه «**أحمد بوبايي**».

ما إن صارت الساعة الثامنة، حتى استلم جميع الحرس مواقعهم في الخنادق كما تمّ توزيعهم مسبقاً. كان خندقنا كبيراً بعض الشيء، يتّسع لاثني عشر شخصاً، وفي الوسط انتصب عمودٌ حديديّ، أمسك السقف، وهناك في آخره كانت صورة الإمام الجميلة تُزيّن الحائط، وقد وُضع فانوسان، كان نورهما يُضيء الخندق.

علّق الشباب ألبستهم على الحبال التي رُبطت لهذا السبب، وبدأوا بتنظيف الخندق، وطُويَت صفحة هذا الليل بالصلاة، ثم تناول العشاء، ثم الدّعاء والتّوسّل بالأئمّة الأطهار عليهم السلام.

القبر والشقائق البريّة

مرّ عدّة أيّام من وصولنا إلى الجبهة الأماميّة، وكانت المسافة بيننا وبين الله تقلّ يوماً بعد يوم، وكما كان الشباب يردّدون مازحين: «**يتصل بضوء التوتر العالي مباشرة**»، وكان «**مهرابي**» من هؤلاء الشباب، ذوي ضوء التوتر العالي، لا يترك القرآن ومفاتيح الجنان من يده، وكان ينزوي بين الحين والآخر مع دعائه ومناجاته.

أمّا شباب «**خندقنا**» فقد حفروا قبراً فوق التّلّة، قرب الشّقائق البرّيّة وكانت لهم معه قصصٌ وأحوال.

عندما كان الأخ «**رنجه**»، مسؤول فصيلتنا، يأتي لزيارتنا أحياناً ليطمئن عن أخبارنا، كان الشباب يستَبْقونه للغداء أو العشاء.

في يومٍ من تلك الأيام، عاد الأخ «**أفراز**» الذي كان مساعد مسؤول الفصيلة، وهو أيضاً من الجرحى الكيميائيين، وقد أصيب في عمليات «**والفجر ٨**» من المستشفى إلى الخندق، فأراد الشباب أن يُقيموا على شرفه «**حفلة البطانيات**»، لكنّه كان أذكى منهم، ولم تنطوِ عليه الخدعة.

فـي إحـدى الصـباحات، التفت الشّـباب إلـى أنّ خـزان الماء قد ثُقب بسـبب قصـف الليلـة الماضـية، فانطلقوا مسـرعين إلى الأخ «**هاتفـي**» الـذي كان يملـك خبرة في إصـلاح خزانـات الماء، لإصـلاحه، بالقطران وبمسـاعدة «**بابي نجاد**»، دلّوني على الثقوب بوضـع يدهم عليها وأدخلت رأسـي داخل الخزان وبدأت أسـدّها. وفي الوقت نفسـه، كان «**شـاداب**» ينظّف الوحل المترسّب في أسفل الخزّان.

هناك، بانت عدة ورود، إنّها الشّقائق البرّيّة التي لفتت نظر «**هدايتي**» فتوجّه لقطفها، فإذا بالقنّاص العراقيّ (الصدّاحي) يفاجئه بعدّة طلقات كادت تحوّله شخصيّاً إلى شقائق، لكنّ الأمر مرَّ بخيرٍ وسلام.

رجع «**هدايتي**» وما أجمل «**الرجوع**»، فسقطت عدة قذائف من حولنا، وصفّرت الشّظايا الملتهبة متطايرة من فوق رؤوسنا.

بعد دقائق، أعيدت الكرّة، ولكنّ القنابل اقتربت منّا أكثر من سابقاتها.

ركض الشباب ضاحكين إلى الخندق، وإذا بقذيفة تسقط بالقرب من خزّان الماء، ولأنّ «**هاتفي**» كان ما زال يصلح الثّقوب، وقع لشدّة ضغط الهواء في الخزّان وعلق فيه، فرمته ضحكات الشباب المتفاجئين بهذا المنظر، بقذائفها السّاخرة.

كانت الأيّام تمرّ... وها قد وَصَلَنا خبر تسليم المنطقة للجيش، إنّه اليوم الأخير لإقامتنا هنا، ما إن أنهيت الحراسة، حتّى جمعت أغراضي بسرعة، وها أنا مستعدٌّ مع الشّباب للرّحيل.

بعد صلاة الصّبح وزيارة عاشوراء انقلبت أحوال الشباب، الذين على الرغم من الفترة القصيرة لوجودهم في الجبهة الأمامية إلّا أنهم استأنسوا بعضهم ببعض، وتآلفوا مع تراب وهواء وشقائق المنطقة، فكان انفصالنا صعباً جدّاً. خلال الدقائق الأخيرة لوجودنا هناك، أمطر العراقيّون المنطقة بنيران شديدة، ساعدَتْ شابَّيْن في مقتبل العمر على الرَّحيل إلى المعبود، لقد عكّر رحيل «**نادر معصوم زاده**» و«**أصغر مهرايي**» صفاء الشباب، كما جُرح الأخ «**شاداب**»، فتمّ نقله إلى الخلف قبل تسليم المنطقة إلى فيلق «**حمزة ٢١**»، وعدنا إلى «**سنكشكن**».

إذاً، الشّهيد «**مهرايي**»، الذي استطاع في أيّام معدودة أن يأسر قلوب الشّباب،لم يعد بيننا أيضاً. ما زلت أذكر ليلته الأخيرة، بعد الصلاة، كان منجذباً لشيءٍ ما، لم ندركه، فقد استطاع بعمره القصير أن يفتح أعلى قمم الإنسانية، وكم كنّا نغبطه على إخلاصه وطهارته، ولقد افتقدنا «**شاداب**» كثيراً، وكم قرأ الأخوة دعاء التوسُّل لشفائه.

كانت المنطقة في حالة «**استنفار**»، فقد قيل لنا إنه من المُحتمل أن يهجم الجيش العراقي كي يحتلّ «**مهران**»، وعلينا البقاء احتياطاً في المنطقة.

في صباح أحد الأيّام، قاد الأخ «**رنجه**» الفصيلة إلى الخطّ الأماميّ، ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد، وقد أضفى مطر الأمس على الطقس لطافة خاصة، بعد قراءة القرآن وصلاة الصبح، حدّثنا الأخ «**رنجه**» لدقائق عن الإخلاص في العمل، تزكية النّفس، وعن وجوب إكمال طريق الشهداء، وختم بالدّعاء لشفاء الأخ «**شاداب**» الذي قضى قسماً مهماً من حياته في الجهاد على الجبهة.

بعد كلمة الأخ «**رنجه**»، ترصّينا في ثلاثة صفوف وكانت وجهتنا جادة «**مهران- دهلران**» الأساسية، وانطلقنا للرّكض والرّياضة، كان الشباب يركضون بانتظام، وهم يصلّون على محمّدٍ وآل محمّد.

وفي ذلك الصباح، ركضنا حوالي ١٠ كيلومترات. قبل أن يشعر الشباب بالتعب، بدأ «**رنجه**» بقراءة دعاء الفرج، ثم انطلق شعار «**عال العال**».

- صابري، عال العال
- عرب علي، عال العال
- شكله، عال العال
- رياضيٌّ، عال العال
- مصيبةٌ، عال العال

وبدأ بذكر أسماء شباب الفرقة واحداً تلوَ الآخر، حتى وصل الدّور إلى «**رنجه**» نفسه، فكان الشباب يسبغون له: عال العال، عال

العال، عال العال، فيبدأ المزاح وتنطلق النّكات واللطائف.

بعد أسبوع من وجودنا في المنطقة، زال خطر مباغتة الجيش العراقيّ لنا، فصار علينا ترك «**سنكشكن**» بكل طبيعتها وحسناتها، ولاحت الحافلات من جديد، جمعنا أغراضنا، وها نحن في طريقنا إلى «**دوكوهه**».

استُقبلنا على أبواب مقرّ «**دوكوهه**» بالحلوى والعصير.

وزُيّنت البوابة الرئيسة بيافطة كُتب عليها «**نبارك عودة رجال «كتيبة كميل**» الأبطال، فأضاف «**صابري**»، الذي فقد أعزّ أصدقائه «**مهرابي**»: «**الأبطال أولئك الذين لم يرجعوا من هذا السفر**».

ليالي «كرخة» وأسحارها

في اليوم التالي، قاد «**رنجه**» الفصيل إلى الخطوط الأماميّة مرّة ثانية. انطلقنا بالشّاحنة باتجاه معسكر «**كرخة**»[1]، كي ننصب الخيم، ونجهّز دورات المياه لشباب السرية.

ما إن عبرنا جسر «**كرخة**»، حتّى وصلنا إلى الجادّة التّرابيّة الموازية للجادة الرئيسة، صار الطقس حارّاً جدّاً، والشاحنة تقطع الطريق الترابية لتوصلنا إلى تلال «**كرخة**» السّكرى من شدّة الحرارة، توقّفت الشاحنة وترجّلنا.

لم ينل المعسكر الجديد رضا الشباب، وأنا أيضاً. بدأنا العمل، وعند الغروب، كانت الخيم ودورات المياه جاهزةً، فلاحت على وجوهنا ابتسامة رضىً لهذا الإنجاز.

كانت ليالي «**كرخة**» أكثر جمالاً وأكثر جاذبيّة من نهاراتها. وبين

---

(١) - معسكر «**كرخه**» أحد المعسكرات التي تضم مراكز تدريب وتأهيل وتبديل الكتائب والسرايا، ... ويقع بالقرب من نهر «**كرخه**»، جنوب غر ب إيران.

الليالي والنهارات، كان «**لأسحارها**» كلّ الروعة، وهنيئاً لمن عاش هذه الأوقات، هنيئاً لهم رفاق غروبها وعشّاق سحرها.

في اليوم التالي، وصل ما تبقّى من قوّات الفصيلة، واستقرّت كلّ فصيلة في خيمة كبيرة، لإنهاء مهمّتنا في «**كرخة**». قام مسؤول الكتيبة بتغييرات في سريتنا، فاستلم الأخ «**سراج**» مسؤوليّة السريّة، مع الإبقاء عليه مساعداً في الكتيبة.

وصار الأخ «**سلسله بور**» معاون السرية، والأخ «**رنجه**» مسؤول الفصيلة، والأخ «**أفراز**» مساعده. كما تغيّرت مسؤوليّات الشباب كافة؛ فاستلم الأخ «**معيري**» قيادة الصفّ، «**حسين درفشي**» رامي رشاش، «**صابري**» القنّاص، «**ذهاب**» البريد، «**قاليباف**» البريد أيضاً، «**سنكتراش**» مسؤولية التموين، «**مصلح**» النّدب والتعزية، «**ميرقاسمي**» السكرتيريا، «**برستاش**» الإسعاف، «**نوش آباد**» في الإسعاف أيضاً، «**تيموري**» رامي الآر بي جي، «**بابي نجاد**» كتيموري أيضاً، «**عرب علي**» مساعد رامٍ، وأنا، مثل عرب علي، كنت مساعد رامي «**آر. بي. جي.**».

أمّا «**فؤاديان**»، والذي هو من مسؤولي «**مصرف ملت**»، كان يتابع كلّ أمور الفصيلة، وكان الشباب ينادونه بـ«**آغا خوبه**» بـ«**السّيّد الطّيّب...**» ولم أعد أذكر بقية الشباب الآن.

في تلك الأيام ببركة الأخ «**بابي نجاد**»، لم نكن نعرف النّهار من

الليل، كم كان هذا الرجل مرحاً وحَسَنَ الأخلاق،كانت أعماله العجيبة فريدة. ما زلت أذكر حين وصل الكهرباء بعامود الخيمة الحديديّ، المحاذي للمدخل، وكان كلّ من يدخل الخيمة يشعر بلسعة الكهرباء، فيتفاجأ ويسأل عن السّرّ وسط ابتسامات الحاضرين، وكان معروفاً بعبارة «**كن ترابيّاً يا أخي**» التي يردّدها دائماً.

مع مرور الأيّام، بدأنا نعتاد على تركيبة سريّتنا الجديدة، وباشرنا الدّروس النظريّة والعمليّة من جديد. عند الانتهاء من كلّ درس، كنّا ننطلق في مسيرةٍ إلى التلال، خلف الخيم، حيث المأوى الذي نلجأ إليه لشرب الشّاي، وأحياناً كان «**آقاخوبه**» و«**سنكتراش**» يقدّمان العصير المنعش للشباب المنهك.

كانت مجموعة من الشباب الجرحى، تتطوَّع لتنظف أحذية الشباب وتلميعها، الذي كان يستمرّ لوقت متأخّر من اللّيل، أمّا ثيابك فلا مأمن لها هنا، إذا غفلتَ عنها لدقائق، فستبحث عنها على حبل الغسيل، وهي تنتظر أن تجفّ، وكان هذا الأمر عاديّاً، ويتكرّر دائماً.

كان خندق المؤونة في آخر الخيمة، وقد فُصل بعدّة ملاءات كَستار، ليتحوّل إلى مصلّى للشباب ليلاً.

بعد انتصاف اللّيل، كانت العيون المشتاقة تجد الوقت المناسب للقاء حبيبها، هناك في زاوية الحسينية[1]، جلس «**نوش آبادي**» وبكلّ

(١) ـ لكل معسكر حسينية خاصة به، وكانت وظائف الحسينية متعدّدة، منها تنظيم الجلسات و التدريبات، استقبال الجرحى و الشهداء، و إقامة مجالس العزاء و الصلاة والدعاء.

إخلاصه كان يدعو ويصلّي، ولكثرة المصلّين والدّاعين، كانت التلال المحيطة بنا تستأنس بهذا الصوت المتهادي إليها من معسكر الحبّ، الذي ضمّ الكثيرين كـ «**صابري**»، الذي لم تكن تفارقه «**حسرة الوصال**».

ما أعظمها من ليال. تلك التي قضيناها في «**كرخة**».

بعد مدّة من الزمن، تقرّر أن يذهب الشباب في إجازة، فخلعوا لباس الجبهة الترابيّة ليلبسوا أثواب مدنهم، وها نحن قد تحرّكنا ناحية «**طهران**»، كان عدد من الشباب قد اتفقوا على إقامة وليمةٍ على شرف كل عناصر الفصيلة (القادمين من أرض الجهاد)، وكان أوّل المتطوّعين لهذا الأمر «**السّيّد الطّيّب**». انتهت الإجازة، فعدنا إلى معسكر «**دوكوهه**»، ومنه إلى مخيّم «**كرخة**» وكانت «**كرخة**»، كعادتها، في انتظار عيون السّالكين إلى الله. ما إن وطأت أقدام الشباب ترابها حتّى اكتست «**كرخة**» من جديد ثوب التألّق والجمال. وبدأت من جديد التدريبات العسكرية الليلية والتمارين الرياضية. في تلك الأثناء تداعت إلى أسماعنا أخبار احتلال العدوّ لمدينة «**مهران**»، وسعيه لاحتلال «**الفاو**».

بشارة المطر

في هذه الأيام، بدأ هطول المطر الذي قلّل من ارتفاع الحرارة، واستغلّ الشباب الفرصة لإقامة مجلس ذكرى وعزاء لشهداء الثكنة، وقد دعونا شباب كتيبة «**حبيب**» إلى هذا المجلس.

بعد إلقاء الكلمات، وذكر مصيبة أبي عبد الله عليه السلام، واللطم، أمطرت السّماء فجأة وبشدّة، وكأنّ قلبها قد تذكّر المسافرين فأمطر دموعاً، ورافقه الشباب حزناً وبكاء.

وأخيراً تسلّمتْ كتيبتنا مسؤوليّة الدفاع عن «**الفاو**»[1]، لقد أصبح الطَّقس حارّاً جدّاً. ومرّة جديدة بدأت علامات سفر القافلة، ها هي الحافلات تلوح على الجادّة، أقلّت مسافريها بسرعة، وتوجّهت نحو «**أروند كنار**»، وصلنا ليلاً إلى بستان النخيل، المجاور لـ«**أروند**».

توزّع الشّباب جماعاتٍ جماعات للنّوم تحت الشّجرات إلى أن يبزغ الفجر.

---

(١) الفاو اسم مدينة ومنطقة حدودية ونفطية، تقع على الخليج، تكثر فيها الممرات المائية والمستنقعات، شهدت معارك طاحنة خلال الحرب المفروضة على الجمهورية الاسلامية وخاصة خلال السنة الأخيرة للحرب.

في الصباح الباكر، توجّهت الفصيلة إلى الجبهة الأمامية، وبدأت الاقتراب من رصيف الشّطّ. على الرغم من أنّه قد مرّ شهران على عمليّة «**والفجر ٨**»، إلا أنّ المنطقة ما زالت مشتعلة بالمعارك وطائراتِ العدوّ ما زالت تملأ سماء المنطقة وتعيث فساداً. عند وصولنا إلى المرفأ، وما إن لاحت مئذنة مسجد «**الفاو**»، تعالت أصوات الصّلوات على محمد وآل محمدٍ، فما زالت راية حرم الإمام الرضا عليه السلام تحكي قصة عظمة جيش الإسلام والتّوحيد، وما زال نسيم شاطئ «**أروند**» يهدينا رائحة الشهداء.

ارتدى الشباب سترات النجاة واستقلّوا القوارب التي انطلقت لتوصلنا إلى الشطّ الآخر للنهر، كانت مدينة «**الفاو**» ترحّب بجنود الإسلام بكلّ حرارةٍ ومحبّة.

كانت فصيلتنا أوّل من يجب أن يستقرّ في الجبهة، ركب الشباب الحافلات التي تحرّكت مسرعة، بعد أن قطعنا نصف الطريق،سلّمت الحافلات مسافريها إلى سيارات الـ«**تويوتا**» التي أقلّتنا إلى الخط الثاني من الجبهة، وبعدها بدأنا المسير مشياً على الأقدام، إلى أن وصلنا إلى الخط الأمامي للجبهة، حيث استقبلتنا نيران العدوّ التي انهمرت علينا بشدّة.

قسّم «**رنجه**» و«**أفراز**» الشباب إلى مجموعات، ووزّعاهم على

الخنادق، كنت و«**تيموري**»، «**بابي نجاد**»، «**عرب علي**» و«**برستاش**» رفاق خندقٍ واحدٍ، بينما كان «**ميرقاسمي**»، «**مهري**»، «**معيري**» و«**نوش آبادي**» جيراننا في الخندق المقابل.

كان خندقنا في أقصى اليمين، حيث لم نكن قادرين على الإطّلاع على أخبار الشباب، أو التواصل معهم. لم يكن هناك «**دورة مياه**» حولنا، فكان مشروعنا الأوّل هو بناء «**دورة مياه**».

بينما بقي شابان من فرقتنا في الخندق لترتيبه، كان سقف خندقنا منخفضاً جدّاً لدرجة أننا كنّا مجبرين على الصلاة جالسين. أنهينا البناء عند غروب الشمس.

وأخيراً...ها هو الليل قد أسدل ستاره، وتحوّل كلّ خندقٍ إلى محرابٍ للعبادة تموج فيه الأدعية والتوسّل، وكان الفانوس الذي يضيء بخجلٍ، رفيق الشّباب الوحيد. ما أجمل أن نعيش كلّ لحظة من لحظاتنا بالدعاء والصلاة! فللعبادة في الجبهة طعمٌ مختلفٌ عن أيّ مكانٍ في العالم، كنّا راكعين، وعيوننا مسمَّرةٌ، على شعلة الفانوس التي كانت تتراقص مع لمعان النجوم في الأعلى.

و... قد يقطع صوت انفجارٍ قريبٍ صوت الدعاء الجميل، ويطغى وميضه على لمعان النّور والنّجوم.

عندما خرجت من الخندق، لاحت لي مصابيح أمّ القصر[1]

(١) ـ مدينة ومرفأ على الخليج جنوب العراق.

المضيئة. وكان مستنقع «**خور عبدالله**» متصلاً بخنادقنا. حمل النسيم عطراً، أثار الحنين في نفوسنا، هل يا ترى وَصَلَنا من كربلاء؟.

أمّا الحراسة الليليّة، فلها حديث آخر، خاصّة عندما تكون عينك ساهرةً ليطمئنَّ بال محيي اللّيل. في أعلى برج المراقبة، كنت تستطيع، وبنظرةٍ واحدةٍ، أن تصل إلى كربلاء، تتساءل كيف؟

لأنّ كربلاء كانت في قلب كلٍّ منّا، أَوَلَم تسمعوا حديث المعصومين عليهم السلام حين قالوا «**إن قبورنا هي في قلوب شيعتنا**»، في تلك الصحراء الواسعة المعتمة، ما كنت لتشعر أبداً بالخوف أو الوحشة، لأنك رفيق هؤلاء الطّيّبين، الذين يطوون طريق ألف سنةٍ بليلةٍ واحدةٍ.

ليتك تدرك عذوبةَ رفقتهم على سفرة الطعام، والعيش معهم تحت سقفٍ واحدٍ، والجلوس بقربهم، والتكلّم معهم.

لأن حرارة الطقس بدأت تشتد يوماً بعد يوم، كانت مياه مستنقع «**خور عبدالله**» تجفّ، وينخفض ساحلها الذي كان لا بدّ لنا من ملئه بالخنادق والأفراد.

كان خندقنا على آخر خطٍّ من خطوط الجبهة، والذي كان يتّصل بالمستنقع كلما كانت الأرض تجفّ، كنا نحفر خنادق إضافية، ولأنّ خندقنا كان يلامس الماء أطلق عليه الشباب اسم «**بلاج**»، أي الشاطئ،

وصاروا يقصدونه للاستجمام. كانت مشكلتهم الوحيدة القصف والقنابل والقنّاصين، والتي كانت تُعكّر صفو المصطافين هناك.

في تلك الخنادق، انسجم «**عرب علي**» مع «**بابي نجاد**»، ولم يعد أحدٌ يستطيع أن يضاهيهما.

فمع كلّ قذيفة وردّ عليها، كانا يبدأان بالضحك وبالحركات العجيبة، وكانا يتربّصان بموضوعٍ كي يبدأا بإطلاق النكات المزاح حوله.

على كلّ حال، كانت الأيام تمرّ، ويوماً بعد يوم، يقترب وقت تسليمنا للمنطقة، وتسلّمُنا لمكان آخر، والذي كان هذه المرّة في مقرّ الدعم، وهو مدرسةٌ من طبقتين في مدينة «**الفاو**».

ما إن سنحت الفرصة حتّى انطلقنا إلى نهر «**اروند**»، بعد أسابيع، كانت المرّة الأولى التي نرتمي فيها بالماء لنستحمّ، ونغسل ثيابنا في الوقت نفسه، ولم نخرج من المياه إلا حين أنهكنا التعب، فعدنا إلى المقرّ.

«ما شاء الله.. حزب الله»

بعد صلاة الجماعة، اجتمع شباب «**الفصيلة**»، وللمرّة الأولى، بعد مدّةٍ طويلةٍ حول سفرةٍ واحدةٍ، شكر الأخ «**رنجه**» الشباب لدفاعهم عن المنطقة، وبعد الصلاة على محمدٍ وآل محمدٍ، ودعاء الطعام، بدأ الجميع...بسم الله...

في تلك الليلة، وبعد صلاتيَ المغرب والعشاء، أُقيم مجلس عزاء عن روح الشهداء، خَتَمه الشباب بلطمية....

بعد المراسم الصباحية، توجّهنا معاً إلى المدينة، وما أجملها من نزهة! على أنغام «**حزب الله، حزب الله**» التي بدأها الأخ «**أفراز**» بشعار ماشاء الله حزب الله ونحن نجيب:

قائدنا....حزب الله.

وطننا....حزب الله.

شعبنا....حزب الله.

شباب الرشاش...حزب الله.

شباب الآر بي جي.....حزب الله.

القناصة....حزب الله.

بعد ذلك وقف «**أفراز**» في الوسط، للبدء بالتّمارين الصّباحيّة، والتفّ الشباب حوله، وكانوا مع كلّ حركة يردّدون «**علي، علي**». هكذا كانت تنقضي صباحات «**الفاو**». في الأيام التي كانت ترتفع الحرارة فيها، كنا نذهب بشكل جماعيّ للسباحة، أمّا عصراً، كانت «**مجموعتنا**» تتحوّل إلى محطّة «**صلواتية**»[1]، والتي عُرفت فيما بعد بمحطّة «**الكُميليّين**».

و... ها قد شارفت مهمّتنا على النهاية، وعلينا توديعها، توديع نخلاتها، مدرستها، محطّات الصلوات فيها، أماكن بيع الورود، والحق يقال، إنّ «**الفاو**» تفوح برائحة العشق والتضحية، وتموج بيوتها بالمحبة، لقد أثبتت «**الفاو**» أنها تليق بأنصار الخمينيّ فصارت موطنهم.

ودّعنا «**الفاو**» لنعود إلى وطننا الأصليّ «**كرخة**» من جديد.

لقد خفّت شدّة الحرارة، وها هي الأعشاب البرّيّة تشقّ طريقها بين رمال المنطقة.

لم يمض على وجودنا في «**كرخة**» إلا أيام، وأعطونا «**مأذونية**».

(١) محطة مجانية لتوزيع الطعام، أو القيام بخدمات كالحلاقة، إصلاح الأحذية و... مقابل الصلاة على محمد وآل محمد فقط.

قبل ذهابنا شكر الأخ «**شاهسفند**» و«**رضا دستفاره**» الشباب كلّاً على حدة، على الرغم من عدم رغبتنا بذلك، قبلنا المأذونية وذهبنا.

عدتُ بعد ثلاثة أيام، كان قد سبقني إلى المخيّم الأخوان «**رنجه**» و«**حميد بهادري**» وآخرون.

التقيت الأخ «**شاداب**» الذي شفي من إصابته في «**مهران**»، وها هو ينوي الإقامة هنا، فبدأ بقضاء أيام صيامه، ومن يصوم في مثل هذا الحرّ؟! لا أدري واللّه.

كنّا نقضي وقتنا، قبل عودة الشباب، ببعض الأنشطة، فنذهب إلى النهر لنصطاد السمك عصراً، وهرباً من حرارة الشمس الحارقة كنّا نلجأ إلى الشجرة القريبة من المخيّم بالقرب من عين الماء.

و قبل العودة المقرّرة للشباب بيومين أو ثلاثة، وصلتنا الأخبار أنّ العدو قد احتلّ «**مهران**»، وأنّ الوضع غير جيّدٍ، توجّه الأخ «**رنجه**» مع شباب كتيبة «**حبيب**» إلى مهران.

عاد الشباب بعد انتهاء الإجازة، وأكثرهم أخذ إجازة أطول بسبب فصل الإمتحانات الجامعية، وتمّ تقسيم كتيبتنا إلى فصيلة من أربع سرايا، أمّا أنا فطلبت أن أبقى قيد الدرس.

كانت «**مهران**» مزدحمة جدّاً، لقد ذهب عددٌ من الكتائب إلى «**سنكشكن**»، فتهادت إلى المشامّ رائحة عمليّات قريبة...

تمّ تجهيزنا، نحن أيضاً، بسرعة، وعادت من جديد التدريبات الليلية، والتمرينات الجادّة.

أصبح الأخ «**أفراز**»، الذي كان معاون فصيلتنا، مسؤولاً عن فصيلة أخرى، تسلّم «**رنجه**» مسؤولية إحدى الفصائل، وفي الوقت نفسه صار معاون سرية، كما أصبح الأخ «**سراج**» مسؤول كتيبة، وكان «**سلسله بور**» معاونه. فهم الجميع أن العمليات ستكون ناحية «**مهران**». أما «**صدّام حسين**» في الطرف المقابل، فقد بدأ مرّة أخرى تطبيق استراتيجية الدفاع المتحرّك، وقد برهن أنه قد انشغل كثيراً بهذه الخطة.

عندما زارني الشهيد «**قمصري**» في منامي، اعتقدت أنّه عليّ الاستعداد للهجرة، كانت رائحة «**الرحمن**» تفوح من بعض الشباب: الحاج «**كابلي**» الذي كان يناهز الأربعين، والسيد «**الجرجاني**» من كتيبة «**الطّيّبين**»، كتيبة «**الختايرة**» (الكبار في السّنّ).

عطر «كرب وبلاء»

إنها الليلة الأخيرة لإقامتنا في «**كرخة**»، أُجريتْ لنا مناورةٌ مهمّةٌ مساء البارحة، وها نحن على أتمّ الاستعداد للانطلاق، بعد صلاتَي المغرب والعشاء، وقف «**رادود**» من شباب الكتيبة، وبدأ بقراءة أبيات عزاء، والحق يقال إنّه قد أبكى الجميع.

– فاح نسيمٌ كأنَّه عطر «**الكرب والبلا**»، أنعش روحي.

سبقنا عدد من الشباب لنصب الخيم، ولحق بهم البعض الآخر، بقينا لنجمع الوسائل وأغراض الشباب، انطلقنا حوالى العاشرة والنصف، أو الحادية عشرة، كان حال الشباب عجيباً، يصعب وصفه، وكلّما مرّت الساعات كانت جباههم تزداد نوراً، استطعت أن ألتحف الليل للحاق بالآخرين، وانتظرنا طيلة الليل في إحدى بيوت «**دهلران**»، لم ينم أحدٌ في تلك الليلة. وعند الصباح، انتشر الشباب للتجوال داخل المدينة، كنت مع الرفاق نتمشّى بين أحياء هذا المكان المظلوم.

كنّا نتمشّى ونتمتم:

قد أتعسني غمّ عشقك

أخرجني من بيتي وأهلي

كي أرى وجهك مرّة،

ضحّيت بعمري مشرّداً بين أحياء عشقك.

بعد صلاة الصبح قرأنا زيارة عاشوراء. وقرأ الأخ «**رنجه**» على مسامعنا بعض الأبيات من أشعاره التي أدهشت الإخوة:

تراب باب بيتك افتخاري

حنان وجهك جنّتي

عشقك قدري

راحتي برضاك

حسين، حسين

بعد ترتيب الأغراض، ركبنا الحافلات مرّة أخرى، وانطلقنا نحو «**مهران**».

قبل أن نصل إلى «**سنكشكن**»، غيّرنا طريقنا نحو المخيّم، وبعد عدة تلال وجبال، لاحت الخيام من بعيد، كان المخيّم في وسط وادٍ عميقٍ، حيث يجري نهر «**كاوى**»، كانت خيمة فرقتنا تلتصق بالنهر.

بعد أن أنزلنا أغراضنا، أوصانا الأخ «**زندي**» بعدم الابتعاد عن المنطقة، فقد نتحرّك تجاه الجبهة في أيّة لحظة.

سدّ الشباب مجرى النهر بحجارةٍ كبيرةٍ، وحوّلوا المكان إلى مسبح يمكن الاستحمام فيه. قفزنا جميعاً إلى الماء، إلى أن استدعانا الأخ «**رنجه**» برفقة الأخ «**سلسله بور**» لتناول طعام الغداء. ما إن أنهوا دعوتهم حتى رمى بهم أحد الشباب إلى الماء، وتعالت الضحكات والصرخات. وصار «**سلسله بور**» يردّد: «**صار المسؤول يُرمى في الماء، حسابكم فيما بعد...**»

ضحك الشباب أكثر لسماع هذا الحديث، كنا نتمنّى أن يرمي أحدهم الأخ «**درويش**» في الماء، لكنّه استدرك الخطة، وتراجع لمراقبتنا فقط.

كنّا نمضي الأيام في الماء، والليالي بالدعاء والتوسّل، وكان الأخ «**كابلي**» يردّد دائماً: «**اعرفوا قيمة هذه الأيام، فسيأتي زمن نتحسّر عليها**».

الرصاصة الأولى

كان الجميع ينتظر الأمر للبدء بالعمليات، ونعدّ اللحظات لذلك، كان «**مهدي صابري**» يتوسّل باكياً كل ليلة طالباً الوصل من الله. انطوى الأخ «**أفراز**» على نفسه في عالمه الخاص، إلى أن دقّت ساعة العمليات.

أخذ الشباب يتهيّأون بكل حرارة واندفاع، إلى أن أخبرونا عند الغروب أنّنا سنبقى كاحتياط للمرحلة الثانية من العمليات. صُدِم الجميع من هذا الخبر. كان من المفترض أن تبدأ كلٌّ من كتائب: «**حبيب**»، «**حمزة**» و«**الشهادة**» بالعمليات، أمّا نحن فرفعنا أيدينا بالدعاء لهم بالنصر، علّق الشباب نظرهم بالخطوط الأمامية، بانتظار الرّصاصة الأولى.

كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً عندما انطلقت الرصاصة الأولى، وتوالت أصوات الإنفجارات، عجز قلمي عن وصف حالة الشباب، فرميته جانباً علّني أستأنس أكثر عندما أشُاهدهم بأمّ العين.

عندما استيقظنا صباحاً للصلاة، لفت نظرنا عددٌ من شاحنات الـ«**مايلر**»، وقد اصطفّت حول الخيم. أنهينا الصلاة، وصعدتْ كلُّ مجموعة في الشاحنة المخصَّصة لها، وقِبلتُنا «**الجبهة**»، ولكن كنا ما زلنا قلقين أن تكون الأمور قد تعقّدت في مكان ما، فَنُستدعى لمؤازرة الكتائب الأخرى.

تحرّكت الشاحنات بسرعة، وعندما وصلنا إلى الجادة الإسفلتية، عرفنا مدى الازدحام في تلك المنطقة.

لم تكن صواريخ الكاتيوشا وقذائف المدفعية لتتوقّف، استطاعت أن تُقلق الأعداء. كان كلٌّ منّا مشغولاً بأمرٍ ما، فلا يتوقّف «**بابي نجاد**» عن ترديد عبارة «**اللهم ارزقنا حسن العاقبة**»، والشباب يرفعون أصواتهم باستمرار بالصلاة على محمدٍ وآل محمدٍ. كانت ابتسامة الرضا مرتسمة على شفاه الجميع.

بعدما قطعنا مسافة، توقّفت الكاميونات، وكان علينا المتابعة مشياً على الأقدام، اختارني الأخ «**زندي**» في الأيام الأخيرة مراسلاً، أو ساعي بريد، للفصيلة، وطلب مني أن أبلّغ الجميع بالتّراص في طابور والسير وراءه أينما ذهب.

مشينا على الطريق باتجاه «**مهران**»، بعد أن قطعنا عدة التفافات وطرق ضيّقة، ها نحن وسط حقل ألغام، الحقل الذي اشتبك فيه شبابنا في كتيبة «**الشهادة**» مع الأعداء وعبروه.

كنّا نُشاهد ونحن نمرّ، بعض الأغراض كقماقم ماء، أكياس إسعافات أولية، أقمشة بيضاء، وأحياناً بعض قطرات الدم على الصخور هنا وهناك.

بالقرب من معبرنا، نام شهيدان شابان بهدوء، حيث أزهرت عدة شقائق وهي تحاول أن تُظهر نفسها بوضوح بالقرب منهما. قد تمرّ أمام ناظريك مشاهدُ لا يمكن نسيانها طيلة حياتك، وما رأيته الآن هو من هذا النوع الذي ينطبع في الأذهان.

عندما وصلنا إلى الخنادق التي طهّرها الشباب، أخذنا أماكننا في يسارها، واحتمينا بها من القنابل التي كانت مستمرة في التساقط وتوزيع شظاياها الحمراء حولنا.

من داخل الخنادق كانت تلوح لنا جدران «**مهران**» المدمّرة، والتي تئنّ تحت غيمةٍ من الدخان الأسود الذي ما زال ينبعث من حرائقها.

من المفترض أن تبدأ المرحلة الثانية من العمليات الليلة، والهدف هو تحرير مدينة «**مهران**».

ارتفعت الشمس وازداد الحرّ مع ارتفاعها، كان الشباب قد ضربوا أقدامهم في الأرض، ووضعوا نصب أعينهم «**التحرير**» و «**الشهادة**»، وابتسامة الثقة ترتسم على وجوههم المنيرة. تولّى بعضنا مسؤولية استلام الأسرى وإيصالهم إلى المناطق الخلفية، وانشغل الشباب طيلة النهار بالدعاء والصلاة وقراءة القرآن.

غابت شمس يوم الهجران، ولاحت نجوم الوصل في سماء الليل، كان «**مهدي صابري**» في حالة جيّدة يُحسد عليها، أما «**أفراز**» فكأنّه قد تمسّك بقوّة بستائر الرّحمة الإلهيّة، وكانت الدموع الجارية على خدَّي «**طالبي**» تلمعُ بنور آخر شعاعٍ من أشعة الشمس المتعبة.

سفر العشق والشهادة

غربت الشمس آخذة معها آخر صورة لوجوه تفوح منها رائحة الجنة. عندما تُشرق في الصباح قد ترى وجوه شهداء غرباء، فتكون شاهدة على ما مرّ عليهم لتنقله لأجيال قادمة، ستحسدنا على هذه الشهادة والغربة.

صلّى الجميع صلاتهم الأخيرة، ولم يسجد أحد إلا وبكى متوسّلاً مستعدّاً لسفر العشق والشهادة.

إلهي، لا تزلزل أقدامنا،

إلهي، نرحل ليبقى قائدنا وإمامنا،

إلهي حتى ظهور المهدي احفظ لنا الخميني،

إلهي، انصرنا على القوم الظالمين، ولا تحرمنا الشهادة.

وصلت شاحنات الـ «**تويوتا**» واستقلت كل فصيلة سيارتها، ثم تحرّكت الواحدة تلو الأخرى. ما زالت القنابل ترافقنا كيفما تنقّلنا، وفجأة زاد السائق من سرعته وكان يقود السيارة دون مصابيح، وما

لبثنا أن فهمنا أنّنا أضعنا القافلة أمامنا، وما زالت وراءنا ثلاث سيارات. لم نكن نعرف كيف نكمل الطريق وبأيّ اتجاه. اقترح أحد الأخوة أن نسير على الطريق الإسفلتية، وأن نغيّر اتجاه سيرنا. لم يستطع أحدٌ أن يدرك أنّنا اتجهنا ناحية «**مهران**» بدل «**دهلران**»، «**مهران**» التي ما زالت بأيدي الأعداء، بعد مسيرٍ ليس بطويل، ها نحن داخل مدينة «**مهران**». ترجّل الشباب ووزّعوا الأسلحة، بينما أمسك البعضُ مصابيحَ يدويّةً ليساعدوا السائقين على الالتفاف. كنا جميعاً مضطربين وقلقين، وبعضنا الآخر يبتسم لطرافة وخطورة الوضع.

فجأة، أطلّت سيارة تهدر أمامنا، استطعنا أن نميّز نوعها، إنه «**جيب**» يتجه نحونا، اعتقدنا أنهم عراقيّون، ولكن يا للمفاجأة السارة، فلم يكن سائق السيارة سوى الحاج «**رضا دستفارده**» معاون «**الفيلق ٢٧**»[١] وأوّل ما قاله لنا عندما رآنا: «**أنتم، ما الذي تفعلونه هنا؟ أنتم في قلب الجيش العراقيّ، الحمد لله ما زلتم أحياء هنا، رافقوني!**».

سارت سيارتنا خلف «**جيب الحاج رضا**»، التقينا ببقية الشباب خلال سيرنا، اصطفّت الكتيبة كلّها خلف الخنادق بانتظار كلمة السرّ، كان الحاج رضا لا يتوقّف عن الحركة هنا وهناك، إلى أن

(١) فيلق «**محمد رسول الله ص ٢٧**» ، من الفيالق المعروفة التي كان لها دور مهم خلال الحرب.

سمعنا: «**بسم الله وبالله وفي سبيل الله**»، تحرّك الجميع... كانت القنابل المضيئة التي يرميها العدو تفضح العيون الباكية، والشّفاه الذاكرة، وأنا أنظر إليهم وأغبطهم على حالهم، فكان الأخ «**أفراز**» لا يتوقّف عن طلب المسامحة من الشّباب واحداً واحداً. كلّما تقدّمنا كانت الأرواح تصبح أكثر تحليقاً والقلوب أكثر اطمئناناً.

كان الشباب يجلسون ثمّ يقفون، تكرّر هذا الأمر مرّاتٍ ومرّاتٍ، وها هم يتابعون الطريق.

والأرض كانت تطير فرحاً لإحساسها بخطوات هؤلاء المجاهدين.

بدأت الميمنة والميسرة بالاشتباك. لكنّنا ما زلنا نتقدّم ولا وجود للعراقيّين، هل هربوا يا ترى؟ كانت طلقات «**القناص**» تخترق صفوفنا، حيث أسقطت إحدى الطلقات صديقي «**رنجه**» وفتحت أخرى صدر «**خانجاني**»، فأظهر مسعفُ الفصيلة «**عابديني**» كلّ مهاراته، حيث عالجهم مباشرة. وفي هذه العتمة والأوضاع، تمّ وضعهما على حمّالتين، وتركهما في إحدى الحفر على جنب الطريق، وما زالت الطلقات تصفر مخترقةً صفوفنا.

اختلّ نظم مؤخّرة الصف. فجأة توقّفنا عن الحركة، فمقدمة مسيرتنا بدأت بالاشتباك مع العدو. وكنا بعيدين بعض الشيء عنه «**أيها الشباب، لا تفقدوا صبركم وهدوءكم**» قال «**محمد زندي**». كنا نراقبهم من بعيد إلى أن تعالى صوت انفجار مهيب أمامنا، ملأ

صوته ودخانه المنطقة حولنا. كانت هناك دبابة وقد سدّت مسير الشباب، وقد انهدم الجزء الأساس منها.

أُعطِيَت الأوامرُ بمتابعة المسير. عندما مررت بالقرب من الدبابة وقع نظري على عدد من الجرحى، «**تيموري**» وغيره من الشباب. «**يا إلهي**» وهذا «**أفراز**» قد رحل، كان ينام بهدوء وسكينة وهذه نتيجة صلاته الأخيرة.

قطعنا هذه المشاهد، وما زلنا نتابع مسيرنا حتى وصلنا إلى قرية تبعد مئات الأمتار عن «**مهران**»، وكأنّنا أضعنا الطريق الرّئيس.

لم يتوقّف الأخ «**شاهسفند**» عن التنسيق مع عامل «**اللاسلكي**»، ينتظر التكليف من المقر، والشباب يتابعون المسير، إلى أن جاءت الأوامر بالتّوقّف. أمّا أنا لم أكن قد نمت منذ عدة ليالٍ، فغفوت حيث جلست. حين فتحت عينيّ ، كان الصّباح قد حلّ.

صلّيت الصّبح تيمُّماً وجلوساً. جاء «**محمد زندي**» مسرعاً قائلاً: «**محسن ، هناك نهر على يميننا ، تعال وانظر**».

عندما اقتربنا من النهر، كنا على ارتفاع منحدرٍ قويٍّ، نشرف منه على بضعة أرتال من الدبابات الضّالة التي تنتظر طلوع الصّباح.

أسرعت إلى الأخ «**سراج**»، وأخبرته بما رأيت. لكنّه أجاب: «**في**

الحقيقة، لا نستطيع أن نُقدم على شيء». أرسل فقط مجموعته شباب لمراقبة تحرّكات الدّبّابات.

كان يمكننا سماع هدير الجرّافات التي تحفر الخنادق لكتيبة «**الأنصار**» في أراضينا[1]. في هذه الأثناء تفاجأنا بالحاج «**رضا**» يمرّ مسرعاً على درّاجته النّاريّة، ويصيح عاليّاً «**يحيا كميل**». استطاع مروره من هنا والشعار الذي أطلقه أن يرفع من معنويّات الشباب.

بعد أن لاحت بوادر الصباح، أطلقت الدبّابات، المتواجدة بالقرب من النّهر، بضع قذائف استطاعت أن تساعدنا على تحديد مكانها بالضبط.

في الوقت نفسه أنهى شباب «**الجهاد**» حفر خنادقنا وأوصلوها إلى أطراف النهر.

و لأنَّ العراقيين كانوا على يميننا كانت الخنادق «**هلاليّة الشّكل**».

صوّبتْ دبّاباتُ العدوّ على الجرافة التي تحفر ناحيتنا، وكأنّهم أرادوا إنهاء حسابهم معها. سقطت إحدى القذائف بالقرب منها. لكنَّ السائق لم يهتمَّ لما يحصل. أكمل عمله بوجهه الذي أصبح مغطًّى بالغبار وابتسامته الدائمة ، في الواقع، لم نكن نلمح من وجهه إلا ابتسامته.

كنت أُتابع حديثي مع أحد الشباب، عندما دوّى صوت انفجار، اختفت بعده الجرافة داخل الغبار والدخان، واختفى معها السائق،

(١) إحدى الكتائب المتموضعة في أحد المواقع المحاذية لموقعنا.

وكأنَّه كان يودّعنا بابتسامته، لأنَّ الوداع الباكي لم يكن من عادات شبابنا. بعد ذلك وجد الشباب «**خوذته**» الحديديّة بالقرب من النهر، وقد خرقتها الشظايا. ومازالت الجرّافة تحترق.

بدأ العدوّ، الذي استفاق على صدمةِ وجودنا في هذه المنطقة المتقدّمة، بدكّ خنادقنا بالقنابل. لم ينته الشباب من تحرير «**مهران**»، ونحن مازلنا على «**بوابة**» المدينة، والساعة الآن الحادية عشر ظهراً.

كانت سيارات «**التويوتا**»، تحضّر باستمرار الدّعم «**الثلج، البطيخ، وشمام الطالبي**»، وكنا نرى الحمولة المفرغة على طول مسيرنا.

بدأ الشباب يتساءلون إذا كانوا في الجبهة أم في سوق خضار «**الحسبة**».

الماء.. الماء

عند الظهر، لم تعد حرارة الشمس تُحتمل، وكان يزيد من انزعاجنا و«**خنقتنا**» وقلّة صبرنا الغُبار المُنبعث من حولنا عند مرور الناقلات. إلى أن نسينا كل الاحتياطات الأمنية، وارتمينا في النهر للسباحة، بالقرب من الخطوط الأماميّة. كنّا نسمع بين الحين والآخر صفير القنابل، أو زئير الطائرات العراقيّة، على الرغم من قلقنا من هذه الأصوات، لكننا لم نكن لنترك الماء. مرة جديدة ومع حلول الغروب انقبض قلب الشباب. كان الأخوان «**سنك تراش**» و«**زندي**» يحترقان حسرة على الوقت الذي أمضياه مع «**أفراز**»، وشبابٌ آخرون يتذكّرون رفاق دربهم الذين سافروا دونهم.

كانت تلك الليلة التي أمضيتها في الخندق من أجمل ذكرياتي على الجبهة، فقد زارني في أحلامي كل الشّباب الأحباب الذين استشهدوا هنا، ما أجمل هذه الزيارة! حيث كانوا يلمعون في سماء «**مهران**» حتى إذا طلع الصباح عادت حسرة لقائهم تُثقل قلبي.

وكان هذا السؤال يؤرقني، يا إلهي ما الذي يجعل هذه الجماعة العاشقة، تبقى في هذه الخنادق التّرابيّة بكل مصاعبها ومصائبها. عمّن يبحثون وأين مُرادهم؟

وفجأة يلمع الجواب: «**لا مكان في هذه الدنيا كهذه الخنادق، يكون المرء فيها ثابت القدم في عقيدته. ولا مكان يُمتحن فيه المرء كهذا المكان، ليمرّ بعدها بأمان إلى الجنّة**».

استطاع الشباب، في الليلة السابقة ان يُحرّروا قلعة «**فيزان**». تراجعت «**كتيبتنا**» بشكل تكتيكي إلى المقر لإعادة الهيكلة والاستعداد. أعاد «**شاهسفند**» توزيعنا وتنظيمنا، ووزّع المهام الجديدة علينا، فعُدنا إلى المنطقة للحفاظ على ما حرّره الشباب في الأيام الأخيرة. قطعنا خنادق المرحلة الأولى، وصارت «**مهران**» وراء ظهرنا، ووصلنا إلى أطراف قلعة «**فيزان**». توزّعت الفصائل هناك، كلٌّ إلى مكانه المحدّد. وصلنا إلى «**المعابر**»، فتقسّمت الفصائل إلى مجموعات أصغر. كان من المفترض أن نستلم أنا و«**بابي نجاد**» و«**شهيدي**» توزيع فصيلتنا في الخندق، حيث سنكمُن للعدو. عند ساعات الصّبح الأولى، كان الخندق قد امتلأ.

بدأ الحرّ يزداد كُلّما ارتفعت الشمس، وصارت مُشكلتنا الأساس «**الماء**». كان معنا ماء، لكنّه ساخنٌ ولا يمكن شربه. ولا يمكن إلّا

أن نضحك على طرائف «**شاداب**» الذي بدأ يشرح نظريّته؛ أنّ العمليات دون ماء «**إمّا أن تنفضح قبل بدئها أو تفشل**».

سلبنا العطش «**الأمان**»، وكانت تسليتنا الوحيدة نكات «**بابي نجاد**» و«**شاداب**» التي كانت تُخفّف من وطأة الظمأ. لم يعد بإمكاننا التحمّل، فانطلق «**شهيدي**» ضارباً عرض الحائط كل الاحتياطات الأمنيّة، وعاد بعد فترةٍ قصيرةٍ بمطراتِ (غالونات) ثلجٍ وماءٍ وشابٍّ للرصد.

كان «**الراصد**» من شباب «**فيلق ذو الفقار**»، وكان من المُفترض أن يُحدّد أهدافنا في مناطق العدو. عندما سقطت بعض القنابل بالقرب منّا، فهمنا أنّ مكاننا قد انكشف، فعاتب «**بابي نجاد**» صديقنا «**شهيدي**» قائلاً: «**أيها الشّاب العاطل عن العمل، ومن طلب منك ماءً أو راصداً**».

ابتسم الشاب (الراصد) قائلاً: «**لا تخف، قبل العصر سأترككم ولن أبقى هنا**»، فأوصاه «**شاداب**»: «**عندما ترحل عصراً لا تنسَ جُثثنا مرميّةً هنا**». وضحك الجميع لهذه اللفتة الطريفة.

كان «**بابي نجاد**» يصرّ أن يُخرج الشباب من خندق العراقيّين، لأنّها تحت نيرانهم المباشرة. مع أنّ خندقنا قد تعرّض لبعض القذائف من الدبابات، لكنّ أحداً لم يترك مكانه إلى أن أُصيب الخندق ببضع منها قلبته رأساً على عقب. الحمد لله لم يُصب أحدٌ من شبابنا بأذى. وتعاونّا على إخراج من تبقّى من بين الركام.

في اليوم التالي، توجّهت مع «**ربيعي**» وبعض الشباب إلى «**مهران**». بعد أن اغتسلنا بماء النهر وتجوّلنا في المدينة، تناولنا غداءنا، ثم أخذنا قيلولةً، وعُدنا مرةً ثانيةً إلى الخط الأمامي. كُنا لا نزال في الطّريق عندما بدأت نيرانٌ شديدةٌ تضرب المنطقة، فأُخبرنا أنَّ العدوّ قد بدأ حملةً مُضادّة. أسرعنا في الوصول إلى الخط. في أول قناةٍ وصلنا إليها، كان عددٌ من الجرحى ملقَون على جانبها وقد أوصونا أن نحمل معنا الذّخيرة إذا كُنّا نتّجه إلى الأمام.

حمل كلٌّ منّا جعبة أسلحةٍ على ظهره، وبدأنا نركض إلى أن وصلنا إلى الخطّ الأماميّ عند الغروب.

استطاع الشباب بجهودهم ومقاومتهم التي لا نظير لها أن يُفشلوا ضربة العدوّ، ولكن ما إن انتهت المعركة حتى أصبح الماء كيمياءً، ومن يحصل عليه تُردُّ إليه الحياة، فلا شيء هنا سوى التّراب والغبار والدّخان. كان الشّباب يحترقون من الحرّ والعطش، وصارت العودة شبه مستحيلةٍ بسبب الظلام الذي بدأ يغطّي المكان. لكنّني وبعد إصرارٍ كبيرٍ استطعت أن آخذ إذناً بالعودة إلى الخلف لإحضار الماء.

كنت أهرول مسرعاً، فقطعت عدّة أقنيةٍ وحقلَ ألغامٍ. ما زالت المنطقة تحت مرمى نيران العدو. كانت المنطقة تفوح برائحة

البارود والانفجارات، استطعت بمجهودٍ كبيرٍ أن أقطع آخر قناةٍ وأقف بعدها حائراً أمام آخر سدٍّ أمامي: حقل ألغام لم يُفتح أيُّ طريقٍ فيه وقد أُزيلت الأشرطة التي كانت تحدّ جانبيه أيضاً، وكأنَّه كُتب علينا الليلة أيضاً أن نمضيها محترقين لأجل قطرة ماء، فعدت أدراجي خائباً، وكانت الليلة كربلاء.

«تحيا كتيبة كُميل»

في الصّباح الباكر، كانت القذائف المُرسلة من العدوّ تحمل معها أربع بطاقات سفرٍ إلى الصّراط، فاستلمها الإخوة «**طالبي**»، «**جرجاني**»، «**رمضي**» والحاج «**كابلي**» الذين كانوا قد حزموا حقائبهم للرّحيل.

حزم الأحبّة حقيبة السفر ورحلوا

تركونا بقلبٍ جريحٍ... ورحلوا

كان الحاج «**كابلي**» مُستلقياً بهدوء في القناة. ما زلت أذكر الحاج «**جرجاني**» الذي كان قلقاً من أن يتخلّف عن العمليات بعد أن كسر قدمه. الآن فهمت سبب قلقه الشّديد. كم نتأخّر أحياناً عن معرفة رجال اللّه. وصل شباب التّعاون (الدعم) في الفيلق وسحبوا أجساداً لشهداءٍ أربعةٍ، كانت أرواحهم ما زالت تحكي لهذه الأرض المباركة عن بطولاتهم الخالدة.

لم يكن عزاؤنا وحزننا لإخوتنا الأربعة قد انتهى، حتى وصلنا خبرُ

شهادةِ الحاج «**رضا دشنفارده**» الذي كسر ظهرنا. ما زال صوته يرنّ في ذاكرتنا: «**كنتُ في طريقي إليكم لأطمئنّ على مكانكم، فإذا بي ألتقي بعددٍ من الجنود الذين طلبوا منّي الوقوف، اقتربت قليلاً ظنّاً مني أنهم إيرانيون، ولكنني تفاجأت أنهم من الأعداء، فترجّلت عن درّاجتي وبدأت بالرّكض فارّاً**». ما زلت أذكر صوته وهو ينادي:

«**تحيا كتيبة كُميل تحيا كتيبة كُميل**»

عرَفنا أنَّ كتيبة «**المقداد**» ستتسلّم مكاننا، وها هي ليلتنا الأخيرة في «**مهران**». ما أثقلها ليلة الوداع هذه! كيف يمكننا أن نُهاجر من هذه الأرض، كيف يمكننا أن نترك هذه الدّماء المباركة هنا؟

اختارنا الأخ «**درويش**»، أنا و«**زندي**» لمرافقة شباب كتيبة «**المقداد**». كان من المُفترض أن يصطحب «**زندي**» الكتيبة كلها على أن أُوصل شخصيّاً ستة شباب فقط إلى الخندق «**الكمين**». ولكنّني للأسف أضعت الطّريق، فجُرح عدد من الشّباب ليلتها بسببي. انزعجت كثيراً لهذا الخطأ، وكذلك الأخ «**درويش**». فعُوقِبنا «**أنا وزندي**»، وكنّا آخر من يترك المنطقة.

بعد رحيل «**الشباب**» واستلام كتيبة «**المقداد**» بشكل كامل، تركنا قلعة «**فيزان**»، كان الليل قد غطّى المنطقة بعتمته، قطعنا الأقنية وحقول الألغام حتّى وصلنا إلى الجادّة الأصليّة. ولكن لا

وجودَ لسيّارات التّويوتا التي كان من المُفترض أن تقلّنا، سلَبَنَا العطشُ قدرتَنا الأخيرة على المشي. لكن لا مفرَّ، علينا متابعة الطريق وإلّا اصطادتنا نيران العدوّ.

كُنّا نسير صفّاً، الواحد تلو الآخر، بالقرب من طريق «**مهران**». أثناء سيرنا، عثرنا على عدّة «**مطراتٍ**» من الماء ارتوينا منها. كان الطريق مُظلماً وصعباً، وكانت القنابل المضيئة تُنير طريقنا أحياناً.

وصلنا إلى آخر الطّريق التّرابيّة، ولكن لم يكن هناك وجود للطريق الإسفلتيّة، سألني «**محمد زندي**» متردّداً: «**محسن، برأيك أيّ طريق علينا سلوكه؟**»، تحسّست الإسفلت بيدي، هذه طريق إسفلتية حوّلها القصف إلى شبه ترابيّة.

أيّها العائدون، أين الشهداء؟

بدّلنا سياراتٍ عدّةً أثناء مسيرنا إلى أن وصلنا إلى مقر «**تاكتيكي**»، صَلّينا الصبح جماعةً في المقر، حيث كانت مراسم وداع الشهداء، ثم نِمنا نوماً كان يُفترض به أن يزيل عنّا عناء سفرنا الطّويل... الطّويل.

في اليوم التالي جمعنا خِيمَنا، وكانت وجهتنا معسكر «**دوكوهه**».

في تلك الليلة، لدى وصولنا، كانت جدران دوكوهه تذرف دموعاً بحثاً عن الأحبّة، وكذلك القادمون. انزوى كلٌّ منهم يُقلّب أوراق ذكرياته، فيُبكيه الحنين للأصدقاء، وكانت الكلمات التي يبُثّها شباب الإعلام: «**أيها العائدون، أين الشهداء أين؟**» تزيد من حزن الشباب ومن دموعهم.

بعد الإجازة التشجيعية التي كانت تُعطى للكتائب بعد كل عمليّة، رجعنا من إجازتنا إلى «**دوكوهه**» حيث كان من المُقرّر أن يرجع الفيلق بعد عدة أيام إلى مُخيّم «**كوزران**».

تقع «**كوزران**» على بُعد عدة كيلومترات من مدينة «**إسلام أباد**»؛

كانت الأشجار الكثيفة تُحوّل المنطقة بجبالها العالية إلى خضراء جميلة. فبعد أن سلَّم الفيلق منطقة «**قلاجة**»، تسلّم هو (الفيلق) مسؤولية «**كوزران**». كانت الكتائب قريبة من بعضها بعضاً.

استقرّت كتيبتنا في فلاةٍ على سفحٍ مُرتفعٍ أخضر، نصبنا خِيَم العشق واحدةً تلو الأخرى، وبدأ المُعسكر يألف المكان والزّمان هناك، وبدأ الانتظار، انتظار مُسافري طريق العشق الذين ستوصلهم قلوبهم إلى هذا المُخيّم.

وأخيراً، أطلّ مسافرو كربلاء وحطّوا رِحالهم في خيامنا، أسرعنا نصطاد رفاقنا القُدامى، علّنا نحيي رفقة الدّرب مرّة ثانية، حتى «**رنجه**» الذي تحسّنت حاله كان مع «**محمد زندي**» يُفتّشان عن معارفهما على الدرّاجة النّاريّة. ولشدّة الازدحام، لم تكن تستطيع أن تُمرِّر إبرةً بين الأقدام، وقد أكملت كل كتيبةٍ عددها؛ لقد سلّم الأخ «**شاهسفند**» كتيبة كميل إلى «**درويش**»، واستلم «**رنجه**» مسؤولية مساعد السريّة، وصرت أنا مسؤول التّموين والذّخيرة.

«تنابل الإعلام!»

ما أجملها من أيّام! لا تتذكّرها إلا ورائحة المحبّة والإلفة تفوح منها، ويزيّنها القول الجميل والحسن.

استقرّ الشّباب الجُدد في مُقدّمة الخيمة، بينما تمركز القدامى في الوسط يتذكّرون الأيّام الماضية، تتعالى ضحكاتهم الرنّانة، وبين هؤلاء وأولئك كان السّيّد «**ذبيحي فر**» أكثر ما يلفت النظر، كان يمسك دفتراً، له زرّ يُقفل به، كُتب عليه «**لستُ راضياً يا أخي**»، فيفهم الجميع أنّ من يفتح هذا الدّفتر غير مسامح شرعاً. معه حق أن لا يسمح لنا بفتح دفتر محاسبة النّفس؛ حيث كان يُسجّل يوميّاً ما يفعله أو ما يشعر به.

مع اقتراب وقت السَّحر كان شباب الإعلام يرفعون مُكبّر الصّوت ليبُثّ الأدعية والمناجاة لإيقاظ الشّباب، غافلين عن أنّ الجميع قد سبقهم، وبدأت الصلوات والأدعية، ما ادّى إلى أن يُطلق الشّباب على الأخوة في الإعلام[1] اسم «**تنابل الإعلام**».

---

(١) كان هناك في المعسكرات الضخمة تشكيلات إدارية لخدمة الألوية والكتائب، ومنها هيئة الإعلام، (والتي تشبه أحياناً الإذاعة) وهي تواكب حركة ونشاط التشكيلات و خاصة الأنشطة الدينية.

كان برد الصّباح يدعونا إلى ارتداء معطفٍ عند الخروج من الخيمة، لكنّ الشباب كانوا يستعيضون عنه بغطائهم (لحافهم)، ومن هنا جاء اللّقب الذي التصقَ ببعض الشباب «**المُلتفّون باللحاف ليلاً**» وكأنّهم اختاروا هذا الاسم الجذّاب ليجمعهم كفرقةٍ خاصة.

استطاع «**جواد سليماني**» و«**حسين سليماني**» أن يملآ مكان «**بابي نجاد**» وآخرين من ذوي «**حِسّ الفكاهة**»، وصرنا نَعرِف حسين بـ«**المصيبة**» وجواد بـ«**جباد**».

كان الشباب يجتمعون ليلاً حول النار؛ ليتذكروا الرّاحلين، وكأن شعلات النّار مع دخانها تحمل الشباب إلى أماكن لا يعرفها سواهم.

كان كل شبرٍ من «**كوزران**» يحتضن مجموعةً التفّت حول النار، نار شوقهم كالفراشات الوالِهة.

كُنّا نبدأ صباحاتنا مع «**مصباح الهدى**» (زيارة عاشوراء) وهتافات «**روحي حسين**»، ونتوجّه بعدها بكامل التّجهيزات إلى السّاحة. بعد المراسم، كّنا نركض أو نتسلّق الجبال، فقد تناقل الشباب خبراً، أنّ العمليّات المُقبلة ستكون في مناطق جبليّة مُتعرّجة صعبة العُبور. كانت هذه المسيرات الجبليّة تُنهك الشباب وتسلبهم راحتهم.

كّنا نتناول الفطور بين الساعة العاشرة والعاشرة والنصف

صباحاً، لننتقل عصراً إلى درس «**التكتيك**»، وليلاً إلى درس «**العشق**». بمساعدة «**جواد سليماني**» بنينا غرفةً إسمنتيّةً للدعم، بالقرب من مقرّ فصيلتنا. وبادر «**محمد زندي**» بإحياء الليالي بالأدعية والزيارات. فنادراً ما كُنّا نمضي ليلةً من الليالي دون التوسّل بأهل البيت عليهم السلام أو اللطم. وكنتُ أحياناً أُقلق راحة الشباب بقراءتي شخصيّاً للأدعية أو اللّطميات بعد الموعظة، خفّض «**زندي**» نور المصابيح، كي يشعر الشباب براحةٍ أكبر عند بكاء الشوق، وصراخ الوصل، وسيل دموع الحزن لكربلاء.

ليلة الغرباء

بحلول شهر مُحرّم، كان شوق الشباب وحماسهم يزداد، قام «**جواد**»، وبمساعدة بعض الأخوة، بنصب خيمٍ مُستعيناً ببعض الأغطية التي وضعها على الأشجار، مُحوّلاً ما تحتها إلى مكانٍ يُمكنه مع غروب الشمس أن يُصبح أفضل مكانٍ يمكن أن نقرأ فيه «**زيارة عاشوراء**».

في اللّيلة الأولى لشهر محرّم، لفّ الشباب شالات (كوفيات) الحزن حول أعناقهم وارتدوا السّواد، وزرعوا رايةً سوداء أمام كلّ خيمة. كان الشّباب بكلّ دِقّةٍ وتنظيمٍ وترتيبٍ، يحيون لياليهم، التي يختمونها بزياراتٍ لبعض الكتائب المجاورة، وبعد الدّعاء والزّيارة، كانوا يتناولون العشاء معاً، إلى أن جاء يوم عاشوراء.

... حين مشى الجميع حُفاةً، بلباسٍ أسود، على جادة «**سنكلاج - كوزران**»، إلى أن وصلوا إلى جوار كتيبة «**حبيب**»؛ والدماء تسيل من أقدامهم، فالطريق طويلة... طويلة.

وأحيينا «**ليلة الغرباء**» (الليلة الحادية عشرة من شهر محرم

والغرباء هم سبايا وأطفال سيّد الشهداء) في حسينية كتيبة «**عمار**». كان لكلٍّ منّا عالمه الخاص على صدى الصوت الحزين لقارئ العزاء، الذي كان يتردّد في الآفاق، فيحمل معه الروح لتحلّق ناحية كربلاء.

هنا كوزران والليل يضجّ بالصدى
هنا كوزران والمناجاة والدعاء
هنا كوزران وكل شيءٍ ذكرى
هنا كوزران وحديثها لنا
هنا كوزران وهذا الجبل للعُلا
في السَّحَر كانت ترتفع المناجاة
وكانت النيران تحرق الخلجات
وكلّ العُشّاق هنا في الخلوات
آه، ما أجمل هذه الأشجار
والنّسيم الذي ينثر الإيمان بِذاراً
حول الخيم المنثورة هنا وهناك
لا شيء سوى التّقوى
فَرشَتها أرجل الأحبّة بورود الجنان
بحثاً عن هدفها الإيمان

كلما ازداد شوقنا، ازداد شعورنا بالغنيمة الكبرى، كُنّا كُلّما

اقتربنا من يوم العمليّات ابتعدنا عن الدّنيا وعن مُحبّيها. كُنا نُردّد مع شباب المجموعة نشيداً سكن في قلوبنا ليكون البلسم لجراح السّائرين في طريق العشق.

«**أمّن يُجيب المُضطرّ إذا دعاه ويكشف السوء**»

إلهي لا تعرِض عَنّا، فلا مأوى لنا، ونحن غارقون بذنوبنا.

لقد وجد الأحبّة طريق الوصول إليك، وبقيتُ أنا يا إلهي وحيداً ضائعاً.

استمرّت المسيرات والتّدريبات اللّيليّة إلى أن انتشر الخبر؛ أنّ العمليّات قد كُشف أمرها، فتمّ إلغاؤها كاملةً.

قصف الجيش العراقيُّ المنطقة بالقنابل، والمدافع، والطّائرات، والأسلحة الكيميائيّة. اضطر بعض شباب الإسعاف إلى ترك المنطقة، فقرّر المسؤولون إعطاء مأذونية لعدة كتائب، ومنها كتيبة «**كميل**»، كتيبتنا.

ها هو يوم الرّجوع إلى طهران. لكنّنا أنا و«**بهادري**» آثرنا البقاء كمتطوّعين لحماية الخيم بما فيها.

كان هدوء المخيّم وصمته لا يدعان قلوبنا ترتاح من ذلك الحنين المميت.

كنا نجتمع مع القلّة الباقية لقراءة زيارة عاشوراء.

عندما عاد الشّباب، انطلقنا إلى «**كرخة**». نِمنا ولعدة ليالٍ في

الصّحراء، لأنّه لم يتمَّ نقل وسائلنا من «**كوزران**». لكنّ الأمر لم يكن سيّئاً فصحراء «**كرخة**» مضيافةٌ وطيّبةٌ دائماً.

فكلّما ارتفع القمر بضوئه الشّاحب فوق المكان، صارت الرّوح مستعدّةً للصقل والإحياء، وما زالت مناجاة «**نورائي**» تزيد على صلاة ليلنا النّور والشّعور. وما زال صدى العشاق الباحثين عن فرصة الوصال، يتهادى في طيّات الليل وعلى جباه التّلال.

وعلى الرّغم من أنّ انكشاف أمر العمليّات وإلغاءها قد أحزن الشباب وأغضبهم، لكنّ الأمر لم يؤثّر على عملهم أبداً، فهم لم يأتوا لقيام اللّيل فقط. فالكلُّ يسعى لرضا الحق والورود من باب المجاهدين وفقط.

مرةً ثانيةً، وقعت القرعة على كتيبة «**كميل**» للقيام بالهجوم المضاد في «**مهران**»، وكلُّ الكميليّين على أتمِّ الاستعداد للهجرة إلى مدينة الذّكريات.

تخطّينا «**سنكشكن**» وحقول شقائق النعمان تتنّفس الصّعداء على مرتفعات قلعة «**فيزان**».

هذه المرّة كان للشّباب نجوى وشكوى مع كلِّ شبرٍ من تراب هذه الأرض. ففي كلِّ شبرٍ دمُ شهيدٍ عزيزٍ عليهم.

كانت السّاعة الرّابعة عندما استقرّ الجميع داخل الخنادق، وكان من نصيبنا خندقٌ كبيرٌ، والتأم شملنا. كان خندقنا بالقرب

من خندق الفصيلة حيث «**سلسلة بور، شجاعي وجواد بابائي**»، وقد استضاف خندقنا الرائع «**داربر، نائيني، تقي زادة، صبيحي فر**». كان «**حسين سليماني**» حارس خندق البريد. وكأنّ الزّمان، وكما عهدنا به في هذه الأرض الطّيّبة، الأفضل في حياتنا.

بدأنا يومنا الأول في «**مهران**» بقراءة زيارة عاشوراء، كان خطُّ التّماس هادئاً. شقّت شقائق النّعمان طريقها لتلوّن التراب. يبقى الكثيرون في خندقنا مستيقظين ومشغولين بالنّجوى لوقت متأخّر. كما ملأ السّيّد «**صبيحي فر**» خندقنا نوراً بمناجاته. كانت صور الشّهداء تتداعى إلينا من خلال وجهه وحركاته.

كان يصرُّ على ألّا يطلع صباحه إلا على كلمات زيارة عاشوراء، وقد أيقظني مرةً كي أقرأه الزّيارة، فهو في نوبة حراسته. لن أنسى يومها دموعه التي كانت تهطل كمطر الرّبيع. ما الذي يراه هذا الرجل ويشدّه للرحيل؟ لم أستطع أن أجد أي سنخية له في سلوكه أو كلامه مع الدّنيا ومحبيها. هنيئاً له.

كان شباب فرقتنا يتولّون الدّعم الغذائيّ لثلاثة خنادقَ كبيرةٍ وآخرَ صغيرٍ. كانت المسافة بيننا وبين العراقيين لا تزيد عن العشرين متراً. فالأمر مضحكٌ؟ أليس كذلك؟

اللعب بالنار

أحياناً، كان «**حسين سليماني**» يستفزُّ العراقيين بالسِّهام، حتى إذا غضبوا، أهدونا بدورهم قنابل يدويّة، فتتعالى ضحكات الشّباب وتكون بداية العركة. فعندما يضيق العراقيّون بنا ذرعاً، يتفضَّلون علينا بالدّوشكا والمضادات. مما يضطر «**أحمد ربيعي**»، مسؤول الفصيلة الثانية ـ جارتنا ـ والأقرب إلى العراقيين، أن يتدخّل بعدة قذائف صاروخية، (آر. بي. جي.)، ليسيطر على الوضع، فيظهر بعدها «**سلسلة بور**» و«**رنجه**» معاتبين: ما الذي يجري، ماذا تفعل، لماذا اللّعب بالنّار؟

ذاتَ ليلةٍ، جاءت جرّافتنا كي ترمّم أحد الخنادق، رآها العراقيون، بدأوا بقصف المنطقة بالآربي جي، فامتلأ المكان بالغبار والدّخان والضّجّة، وكان سائق الجرّافة بوجهه المبتسم،الأكثر هدوءً، حيث لم يوقف عمله إلى أن أنهاه على أكمل وجه.

كانت فصيلتنا في آخر خطّ التماس، وكانت منطقتنا، أشبه بسهمٍ

في اختراقها للجبهة العراقية. تعد «**مهران**» الأقرب طريقاً إلى كربلاء. وكان خندقنا «**كمين ٢**» الأقرب بين بقيّة الخنادق، لذا كنا نحن الأكثر أنساً بالحسين وأصحابه.

والشّباب الذين التفتوا لهذا الأمر، صارت لهم جولاتٌ وصولاتٌ مع البكاء والحنين لسيّد الشّهداء.

أحدُ شباب الدّعم المميّزين، وأقصد به «**مسعود نعمتي**»، والذي كان في مقتبل العمر، والذي التحق حديثاً بالجبهة، كان كثير «**الحراك**»، فكان مشغولاً دائماً، إما بالرَّمي، أو بالتّفتيش عن أسلحةٍ أو أهداف جديدة. وكان غالباً ما ينشر الفوضى في المعسكر.

عندما أنزل العراقيون صَلَياتِ الدوشكا فوق رؤوسنا، تعقّبنا الأمر لنعرف سبب هذا القصف المفاجئ، عرفنا أنّ مسعوداً كان قد وضع خوذته على خشبةٍ طويلةٍ، وأخذ يحرّكها في أماكن محظورة، فثار العراقيون وما أعجب وجه ونظرات **مسعود**! عندما كان **رنجه** يؤنّبه ويصرخ فوق رأسه.

في إحدى الليالي، ساقت الطريق أحد العلماء إلى خندقنا، بعد العشاء، وكالعادة، قرأنا سورة الواقعة، ثم توزّع الشباب إلى مواقعهم، لينام البقية في خنادقهم، إلا الأخ «**داربر**» الذي أصرّ على الشيخ أن يُحدّثه عما وراء حجاب الوصل، كان كلما أنصت أكثر، تبدّلت أحواله.

تحت ضوء المصباح الخافت، كانت كلُّ حبّةِ ترابٍ تلقي النظرة الأخيرة على وجهه الهانئ، ولم نضطر للانتظار كثيراً لنصل إلى نهاية قصته، فقد شرب الكأس، وارتوى وارتحل شهيداً.

تلقى «**داربر**» إشارة الرحيل، فتَرَكَنا بحجة زيارة الخنادق وتفقد حاجات الشباب. وبعد لحظات ومع صوت انفجار قذيفة، ودّعنا بالقرب من أحد الخنادق.

انتشر خبر ارتحال «**داربر**»، وجاء رفاق دربه إلى خندقنا لتفقّد منزله الأخير عندنا.

اجتمع عددٌ من الشّباب حول خوذته التي ثقبتها الشظايا وبقي عليها دمه، وذرفوا الدّموع على حالهم، هم الباقون بعده، معلّقين على أمل اللقاء.

ما زلت أذكر يوم اقتحم «**حسين سليماني**» خندق الذخائر، وحصل على علبة أطلق عليها اسم «**الحلوى**»، وبعد إصراري على تركها مكانها، اقتنع بإعادتها، ولكن استقبلته على باب ذلك الخندق رصاصة أزاحته عن طريق الجهاد بعد أن أصبح «**قطعة مستعملة**» كما يقول الشباب.

في تلك الليلة، وبعد صلاتي المغرب والعشاء، قرّرت أن أتفقّد البريد، كان الجو يخفي بعض الأمطار التي نزلت عليّ عند الخندق الأول، وما أعجبه من مطر. امتلأت الخنادق بالماء الذي حمل إلينا

الألغام، مع القصف الذي لم يتوقّف أبدًا ليلتها. وقعت أرضاً عدة مرات، وكدت أدوس على لغم.

بعد أن غسل المطر المكان، وبسبب شدّته، بانت أجساد القتلى العراقيين،الذين كانوا مدفونين بالقرب منّا.

توقّف المطر، فنظّف الشّباب الخنادق، ونشروا الأغطية وكل الأغراض كي تجف. وعادت خنادقنا قبل الغروب إلى حالتها السابقة. نام الشّباب ليلتها دون حراك لشدّة تعبهم وإنهاكهم.

بعد منتصف الليل، استيقظ شباب الفصائل المختلفة على صوت انفجاراتٍ متتاليةٍ. بعد التحريّ عن سبب هذه الأصوات، تبيّن أن إحدى القنابل المضيئة التي أطلقها العراقيّون قد انطفأت على الأرض بالقرب من مستودع أسلحتنا، فشبّت النّار وكان ما كان.

وداع الليالي المقمرة

جاءت الأيام ورحلت، وها هي كتيبتنا تقترب من أيامها الأخيرة هنا. كان «**أحمد ربيعي**» يتمشى في «**القناة**»، ويُحدّث نفسه بأشياء لم نسمعها، بل كنا نلاحظ أحياناً حركة كتفيه لشدة بكائه، ولم يستطعْ أحدٌ منا إخراجه من حالته المعنويّة هذه إلى أن نال شهادة نجاحه في الامتحان، عندما أصابته رصاصة.. وكانت خلاصه، أسرعنا لإنقاذه، لكن وصلنا بعد فوات الأوان.

فقد تحرّر طائر العشق من قفصه، وقد أرجف قلوبنا منظر ابتسامته التي رسمت الفرحة على شفاهه. لقد أعادنا أحمد كـ «**داربر**» إلى مجالس الحزن والفراق.

سنترك «**مهران**» إذاً، مع كل ذكرياتها الجميلة

يا أقرب خندق من كربلاء، وداعاً مهران

وداعاً أيتها الشقائق البرّيّة في مهران

وداعاً أيتها اللّيالي المقمرة، ليالي مهران

وداعاً أيّها الشّهداء، الأحبّاء المسافرين من مهران

بعد تسليمنا الخط الأمامي، وعودتنا إلى «**كرخة**»، ذهبنا جميعاً في مأذونية. في طهران، أقمنا مجلس عزاء عن روح شهداء مهران، لقد شارك شباب الكتيبة كافةً بشوق لا يوصف بهذه المراسم.

مضت أيام، قبل أن نستطيع القضاء على هذه المأذونية والهرب من طهران. أما وجهتنا فالجنوب. فررنا إلى خنادقنا المظلمة، وخيمنا المليئة بالعقارب في «**كرخة**»، وإلى مباني «**دوكوهة**» الدافئة، ومطبخنا الأسبوعي، وإلى ثيابنا الموحلة التي فضّلناها على فنادق ومطاعم وألبسة المفتونين بالمدن... آه، من الأفضل ألا يعرف البعض بما نراه في هذه الصحراء.

لم يمض أكثر من شهر على فصل الخريف، تركنا طهران واستقلينا قطار «**أنديمشك**»، ومن هناك أخذنا الحافلة المتجهة إلى ديار الأحبة «**كرخة**». كان مخيم «**كرخة**» ينتظر بكل صبرٍ ووفاءٍ عودة أعزائه. الخيم التي كانت تظلّل الشّهداء، تحتضن رفاقهم القادمين والغربة تفوح منها.

لم أكن أعرف كيف يمكنني أن أواجه قبر «**ربيعي**» الذي يضمه وأسراره، كما كان يشهد حضوره الغالي بعد منتصف الليل.

ها هي كلمات «**شهيدي**» عن عباس تقتحم ذاكرتي: «**ألا ترى عباساً فوق الغيوم**»؟ «**هل ترى الأنهار والحدائق الخضراء؟**»

أغمضت عينيّ كي ألمس أكثر ما كان يقوله، ورائحة مألوفة تحيط بي: «**إنها رائحة العشق في كرخة، كرخة التي تفوح من ترابها رائحة كربلاء والنجف، رائحة الدعاء، وكانت «كرخة»** موطن أصحاب أبي عبد الله عليه السلام.

كرخة هي كرخة، خيمها هي خيمها، لكن الفراغ الذي تركه شهداؤها صعب الوصف.

نحن الذين ذهبنا إلى الدّيار وعدنا لنجد أن «**دربر**» و «**ربيعي**» قد تركا المكان ليسكنا قلوبنا.

رسمت بشرى العمليّات بسمةَ الرضا على وجوهنا. وها قد عاد قاصدو كربلاء وتوزّعوا على فصائلهم، واستلموا معدّاتهم ووظائفهم.

كان «**سلسلة بور**» و«**رنجة**» مسؤولَيْن عن سرية الشهيد «**مدني**»، وتسلّم الإخوة «**بابايي**» «**كرمي**» و«**محمد زندي**» مسؤولية فصائل السريّة.

«لمّ الشمل»

أوصانا «**زندي**» أن ننصب خيمةً كبيرةً لنا كي تكون مكان لَمِّ شمل الأحبّة، فكان له ما أراد، إذ أصبحت خيمتنا المركز الإعلامي الدّينيّ، وبهمة الأخ «**أحمدي**» تحوّلت إلى مطبخٍ مجهّزٍ أيضاً.

عندما استشم بعض الإخوة القدامى رائحة العمليّات، أسرعوا إلى خيمتنا ومن بينهم «**مهدي صابري**».

كانت فصيلتنا تتعدّى الخمس والأربعين شخصاً، وأحياناً لم يكن الجميع ينال نصيبه من الطعام. فمرّت أيّامٌ تأسّينا فيها بشعبِ أبي طالب، لذلك افتتحنا فرع «**القرض الحسن**» الغذائي الذي كانت قروضه تتضاعف محبةً وقرباً بين الشّباب.

كنّا إخوةً وهذا يكفي. كانت بعض الفصائل تستضيفنا وكنا المضيفين مرّاتٍ عديدة. عندما كان اللقاء في خيمتنا، كنّا نرسل بعض الشّباب إلى البلدات والمدن القريبة لإحضار الدّعم الغذائيّ. الذي كان يتولّاه رؤساء البلديّات يومها، حيث كان هؤلاء مضطرين

للعمل كربّات البيوت في تنظيف الخضار وتزيين سفرتنا.

وحده الله يعلم ما الذي كان يحصل لتلك الأرواح الطّاهرة، والقلوب الصّافية حول تلك الموائد.

«**اللّهم ارزقنا رزقاً حلالاً طيّباً واسعاً**» وحين كان هذا الدّعاء يُرفع قبل الطعام، كان الجميع يَبْدون شاكرين وحامدين.

كان التّدريب المستمرّ، والمسيرات الطّويلة، وتمارين القتال اللّيليّ، يرفع جهوزيّة الشباب وقدراتهم القتالية أكثر فأكثر.

لعلّني كنت آخر من يستيقظ في منتصف الليل، عندما كنت أُخرج رأسي من تحت البطّانيّة وتحت الضوء الخفيف للفانوس المتدلّي من السقف، كنت أرى الجميع وقد اصطفّوا لأداء صلاة الليل.

كان القادمون الجدد يظنون أنّ الفجر قد لاح، فيستيقظون لصلاة الصّبح.

في ظلمة الليل تلك، وحيث كان القمر محاطاً بهالة من الضّباب، كان نسيم «**كرخة**» الليلي يضاعف نضارة أعشاب المرج المبللة بقطر الندى، وصوتٌ يتناهى إلى الأسماع من بين التلال والهضاب، صوتُ مجاهد لجأ إلى سكون الليل بعد يوم من الكدّ والتّعب، مناجياً ربه بهدوءٍ وسَكينةٍ، وبعضهم كان يلفّ البّطانيّة على جسمه ويهوي ساجداً في حالة عجيبة من المناجاة والدّعاء، حتى وكأنّ أنحاء الأرض كلّها تشاركهم أنينهم وترنّمهم.

كانت المناجاة التي تُذاع عبر مكبّر صوت الكتيبة تبعثُ السّكينة في النفوس، وتنفذ إلى قلوب الجميع.

مولاي يا مولاي، أنت الخالق وأنا المخلوق، وهل يرحم المخلوق إلّا الخالق.

مولاي يا مولاي، أنت الرّازق وأنا المرزوق، وهل يرحم المرزوق إلّا الرازق.

العشّاق والعلماء

حينما وصلت قافلة قوّات فيلق محمّد ﷺ، التحق بعضهم بفصيلنا، وكان بينهم «**آصفي**» وهو طالبٌ جامعيّ، كان معنا عدد من «**الدكاترة**» والجامعيّين، لكن آصفي كان الأكثر مطالعة؛ ولهذا فقد طلب منه الأخ «**زندي**» بأن يتابع الشّباب ثقافيّاً لتقويتهم في المجال العقائديّ.

كان في فصيلنا فريقان: فريق العشّاق وفريق العلماء، كان الأوّل يعتقد بأنّ العمل ينبغي أن يبدأ بالعشق وينتهي به، فيما كان الفريق الثاني يرى بأنّ العمل ينبغي أن يتمحور حول العقل، وبالتالي على العلم اتخاذ القرار النهائي، لكن هذه المباحث كانت غالباً على سبيل المزاح؛ حيث إن كل روّاد الجبهة كانوا قد أدركوا بأنّه لا نتيجة مضمونة دائماً عندما يقرِّر العقل، وأحياناً حينما كان العقل لا يُثمر في العمل، كان العشق حلّال المشاكل، ولطالما شوهدت هكذا مواقف مراراً وتكراراً في ليالي العمليات. كان «**مهدي صابري**» و«**رجبياني**» يتباحثان معاً في هكذا مسائل، واللافت

أنّ نور الشهادة كان ظاهراً على وجههما وفي سلوك كليهما.

كانت الأيّام تمضي، والوجوه تُصبح مألوفةً أكثر فأكثر، وكان الأنس يتضاعف بين الشباب، من الوجوه التي لا تغيب أبداً عن بالي، «**مصطفى نوش آبادي**» بمناجاته وخلوته مع ربّه، «**جواد بابايي**» من أصحاب خلوة منتصف الليل، «**إسماعيل رنجه**» النموذج البارز للمحبّة والصّداقة، «**محمد رضا فروزانفر**» بروحه الكبيرة، وصفاء باطنه، وروح العبودية، «**أحمد آجر لو**» بإيثاره وتضحيته، «**علي رضا رجبياني**» بكامل إيمانه وإخلاصه، «**السيد علي جعفري**» بكل ما كان يجري في قلبه الطاهر، «**مهدي صابري**» بقلبه المنكسر، «**محمد شاداب**» بدموعه وحرقته التي لا نظير لها، «**آصفي**» بكل ما كان يعرفه من عالم الغيب.

ما أكثر ما قلنا وما قالوا عن الشهداء، ولكن لا يعرف الشّهداء إلّا الشّهداء.

كان الإيثار يفوح ويتألّق بين الشّباب، كانت صحون العشاء تُنَظَّفُ في منتصف الليل، وكانت الألبسة المتّسخة والموضوعة جانباً للتنظيف، تُغسل وتُنشر صباحاً. الحمّامات كانت تُنظَّف و... كان هذا يتمّ دون أن يعرف أحدٌ. فقد أدرك الجميع بأنّ الدّنيا معبرٌ ليس إلّا.

في إحدى الليالي، جاء دورنا لترؤّس لجنة احتفالات الكتيبة،

فدعونا الجميع لحضور مجلس عزاء الإمام الحسن عليه السلام، بكى الجميع ولطموا الصدور. في تلك الليلة كان لـ«**بابايي**» حالاتٌ خاصّةٌ، وكأنَّ كلَّ مصائب الإمام الحسن المجتبى عليه السلام قد صُبّت على قلب هذا الموالي الحقيقيّ، لا أعرف ماذا رأى في تلك الليلة، فانقلب بهذا الشكل، لقد كانت هذه الحالات ظاهرةً عليه حتى لحظات الشّهادة.

كانت ليالي «**كرخة**» الباردة تزهو دفئاً بأنفاس العارفين والسالكين ذوي القلوب الملتهبة، وكانت اللّحظات تُطوى على أمل ليلة العمليّات ويوم الوصال.

في أواخر أيام إقامتنا في «**كرخة**» صار مزاح الشّباب مُعديّاً، فالكل صار يشارك بالمزاح والضّحك. كان اسم فريقنا «**فيلق محمّد** صلى الله عليه وآله»، وكان الفريق المقابل هو جيش العدوّ. عندما لم يكن الأخ «**زندي**» موجوداً وكان الشباب يطمئنون إلى كونه بعيداً عنهم، يبدأ المزاح. كنّا نبني صفّين من الدّشم بواسطة البطّانيّات التي نكدّسها فوق بعضها البعض كسواتر ترابية داخل الخيمة، ليبدأ التراشق المدفعيّ بين الشباب؛ بالأكواب، والبرتقال، والتفاح، وكل ما يملكون من وسائل قصف، في الوقت الذي كان بعضهم يقلّد أصوات الانفجارات والقذائف، كان «**محسن برهيزكار**» بقامته الضّخمة، مشهوراً باسم «**القذيفة المباشرة**». حين تحتدم المعارك كان «**القذيفة المباشرة**» بكل ضخامته وقوّته يلقي بنفسه صارخاً في وسط دشمة

العدو (البطّانيات) حيث كان الجميع يلوذون بالفرار، حين تنفجر «**القذيفة المباشرة**» كان يتم فتح ثغرة للنّفوذ إلى جبهتنا، فكان الأعداء يعبرون ويوسعوننا ضرباً مُبرحاً!

في هذه الأثناء، حين كان يطلّ أحد المسؤولين أو الأخ «**زندي**»، كان الجميع يهتف «**أطلقت قذيفة مضيئة**»؛ فيتسمّر المقاتلون في أماكنهم، لكنّ الوجوه المُحمرّة والمُزرقّة والأنفاس اللاهثة كانت تُعرِّف الأخ «**زندي**» على ما يجري داخل الخيمة. فكان يخرج من الخيمة، بضحكته الرّصينة، فيقول الشباب: «**قِيام، لقد أُطفئت المضيئة**»، فتبدأ المعارك مجدّداً. كل من يُجرح في هذا المزاح الحربي يتم نقله إلى قسم الإسعاف والطوارئ، والذي يُديره الأخ «**عابديني**» في آخر الخيمة، فيتمّ علاجه هناك. كان «**السيد علي جعفري**»، مندوب الأمم المتحدة، يتابع حالات نقض قوانين زمن الحرب، كانت اللعبة تستمر إلى أن يُطلّ أحد المسؤولين مجدّداً، بمجرّد أن يظهر كان يُطلق إنذار «**القذائف المضيئة**»، فينبطح الشّباب كُلٌّ في مكانه، كان لقب مسؤول الفصيل «**مضيئة ٦٠ ملم**»، معاون الفصائل «**مضيئة ٨١**»، ومسؤول الفصائل «**مضيئة ١٢٠**» وقائد الكتيبة «**مضيئة عنقودية**»، فكلما ارتفعت الرّتبة والمسؤوليّة كان الموقف أصعب وردّة الفعل أكثر حزماً وشدّةً.

ليلة ولادة الإمام الحسن العسكري عليه السلام، أقام الشّباب حفلاً رائعاً، قمت أنا وجعفري وبعض الشباب بإنشاد مولد، وشاركنا البقيّة بالفرح والسّرور والضّحك، انتهى المجلس بتناول الحلوى والعصير، لينضمّ إلى قافلة الذّكريات.

قيام!

لقد خطر سؤال في ذهن مسؤولي الكتيبة وهو: إلى أي مدى يطيع الشّباب أوامر الأخ «**رنجه**»؛ ولهذا، في إحدى الليالي حوالي الساعة الثانية عشر ليلاً، حضر «**رنجه**» وهتف بالجميع «**قيام**»، ثم رصف المجموعات في خطوط متوازية، كان ضوء القمر يجعل وجه «**رنجه**»، الواقف مقابل الجميع، أكثر تألّقاً وجاذبيةً، قال «**رنجه**» بدون مُقدمة: «**أيّها الإخوة، نريد أن نقوم بمسيرٍ حتى الصّباح في هذا الطّقس البارد وبدون قُمصان، كل من يريد المشاركة فليتقدّم إلى الجهة الأخرى، ويخلع قميصه. على الفور وبدون تريُّثٍ، قام الجميع بدون استثناء بخلع قمصانهم، واصطفّوا حيث أشار «رنجه»**. تكلّم «**رنجه**» ونحن على هذه الحالة حوالي نصف ساعة، وقال: «**لقد أردنا أن نمتحنكم، ليس هناك مسير**»، وختم كلامه بالقول: «**إن شاء الله أكون خادماً جيّداً لكم، وأستطيع أن أردّ لكم كل هذا الجميل**». جعلت كلمات «**رنجه**» الدموع تنهمر على الخدود، أقبل الشباب على «**رنجه**»

وبدأوا يعانقونه وكأنّه جوهرةٌ ثمينةٌ وصافحوه فرداً فرداً.

كان الجميع يشعر باقتراب موعد العمليات، وكأنّه يشمّ رائحتها بعد المناورة التي أجراها الفصيل قرب نهر «**كرخة**». جاء دور مناورة الكتيبة، والتي أُجريت، وبحمد الله، بخيرٍ وسلامةٍ أيضاً.

بعد ليلتين، أخبرونا بأنّنا سننتقل الليلة إلى معسكرٍ جديدٍ. بعدها بساعة، دخلت الحافلات، وقد أُطفئت مصابيحها، إلى المعسكر. انطلقت سلسلة الحافلات بعد ساعة وقد استقر شباب فصيلتنا في واحدة منها، واحدٌ يضحك، وثانٍ يبكي، وآخر صامتٌ مُتأمّل، كل هذا بسبب شوق الرّحيل. كانت «**كرخة**» غارقة في سكونٍ ودهشة، تُودّع أصحابها بهدوء. لم نكن قطعنا مسافةً طويلةً، حتى طفح كيل تحمّل الشّباب، وانفجروا بالبكاء جميعاً، كانوا يُنشدون ويحترقون:

أولئك الذين شدّوا الرّحال ليلاً،

مضوا على الشّوق وذكرهم «**يا الله**»

الشباب الذين كانوا نُزلاء الغرف نفسها، جلسوا داخل الحافلات بالقرب من بعضهم، وهم يتناجون بصوت خافت، كان الدمع يجري من أعيننا، وكذلك كانت عيون السّماء، كأنّ السّماء كانت تعلم بأنّ الكثير من هؤلاء المسافرين لن يعودوا مجدّداً.

عندما استيقظنا، كانت الحافلات قد وصلت إلى منطقة مليئة

بأشجار النّخيل، كانت الحافلات تتحرّك ومصابيحها مُطفأةٌ لأجل رعاية الاستتار في المنطقة، ولكن أي حركة هذه؟ أبطأ من حركة السُّلَحفاة، كما كان يعبر الشباب، نزل بعض الشباب من الحافلة، وصاروا يحدّدون الطريق بمصابيح يدويّة، كانت الطريق ترابيّةً وقد أصبحت، بعد هطول الأمطار، شديدةَ الانزلاق، فكانت الحافلات تهتزّ منزلقةً حيناً بعد حين. ترجّلنا ليلاً وذهبت الحافلات، تقرّر أن نُتابع قسماً من الطّريق مشياً. اصطفّ أفراد الكتيبة في نظام مرصوصٍ، كان كلُّ واحدٍ يحمل، إضافة إلى تجهيزاته الفردية، قِسماً من وسائل وذخائر الكتيبة. كان من الطبيعي وسط هذا الظلام والأرض الموحلة والحمل الثقيل، أن ينزلق الشباب ويقعون أرضاً عدّة مرّات. وصلنا أخيراً إلى مكان استقرارنا، وهو قريةٌ صغيرةٌ وسط النّخيل. في ظلمة الليل، توزّعنا في الغرف والبيوت، علّنا نحظى بكبوة نومٍ حتى الصّباح.

بعد صلاة الصبح، تراصّت الكتيبة، وأعطى قائدها عدة توجيهاتٍ هامةٍ للشّباب، ومنها، «**لا تبتعدوا كثيراً عن ساحة الكتيبة، وأينما ذهبتم احملوا معكم كيس القناع (الواقي من الأسلحة الكيميائية)**». حتى الآن لا أحد يعرف أين نحن، لهذا سألوه عن موقعنا فأجاب: «**نحن بالقرب من نهر «بهمن شير»** ونخيل «**خسروأباد**». بعد تناول طعام الفطور، بدأنا بالتّجوّل والتعرّف على محيطنا، فوجدنا أنّ نهر «**بهمن**

شير» يجري على بُعد مئة متر من مقرّنا، كانت الأرض والأشجار هناك تحمل آثار قصصٍ وحكاياتٍ كثيرةٍ. أصبحنا متأكّدين الآن بأنّ العمليّات قريبة.

بعد الصّبح بساعة، شمّرنا عن سواعدنا، وبدأنا «**بالتعزيل**» -كما يُسمّيه أهل المدن- لترتيب الغرف والأفنية المبنيّة من خليط الطين والتبن، فرشنا الأرض بالبطّانيّات، وبدأنا يوماً جديداً وحياةً جديدةً!

استقرّت مجموعتنا في منزلٍ قرويٍّ قديمٍ، ذي فناءٍ كبيرٍ نسبيّاً يُحيطُ به عدد من الغرف. كانت شمس الشتاء جذّابة مُمتعة، التفّ الشّباب حول بعضهم في حلقة في فناء البيت، يتحدّثون بحرارة، فطرح «**صابري**» و«**رجبياني**»، ممثلاً فريقي العُشّاق والعُقلاء، مسألة العشق والعقل، لكن بين جمع الشباب، كان هناك من يُحلّق في عالمٍ آخر وحالةٍ أخرى «**أفسري**» و«**سروري**».

بعد مرور بضعة أيام، تعوّد الشباب على تلك البيوت القرويّة الصّغيرة. كانت الأيّام والليالي تُطوى على أمل حلول لحظة الانعتاق، كان بالإمكان أن تجد الكثير من الشباب، بين أشجار النخيل وفي ظُلمة الليل، يتمشّون والفانوس بأيديهم. يقول بعضهم - ممّن استُشهِد فيما بعد-: «**المشي بين النخيل يُعيد للإنسان ذكرى نخيل المدينة، هناك حيث كان المولى أمير المؤمنين عليه السلام يخلو بربّه في مناجاته**». في هذه الأثناء، لم يبقَ «**مهدي صابري**»

عاطلاً عن العمل، بل قام، وبمساعدة اثنين من الشباب، بحفر قبر، كانوا يتناوبون في الليالي على النوم فيه، والتّحليق في حالاتٍ وأحوالٍ! إحدى حسنات مكان استقرارنا، وجود مكان للاستحمام فيه، وهو عبارةٌ عن غرفةٍ صغيرةٍ، مصباحٌ آليٌّ وسطلُ ماء.

في ساعات العصر، كان الشباب يحضّرون الشاي، ويتناولونه وهم يتحدثون على السطح تحت أشعة شمس الشتاء الجذّابة. عندما قيل إنّ على الشباب أن يُحضّروا حصصهم التّموينيّة العسكريّة، فهمنا أنّه لم يبقَ سوى يومٍ أو يومين للعمل، عندما أخذ الشباب التموين، لم يكن عندهم سوى نوعين من ردود الفعل، بعضهم مثل «**شاداب**» كان يُفرغ محتويات كيسه، وهي عبارة عن علبة سردين، لوح شوكولا وبعض المكسّرات فيلتقمها ويلتهمها في ضربة واحدة، عندما كنّا نسأل لماذا تأكل التّموين العسكريّ؟ كان يقول: «**لا بأس، في المعركة نفتح جُعب الذين استشهدوا ونأكل تموينهم**» والبعض الآخر كان يحتفظ بحصّته للعمليّات.

بعد ساعات، وصل الخبر بأنّ العمليّات قد تأجّلت عدّة أيّام. في هذه الأيام أيضاً، كان وطيس المراسم الصّباحيّة حامياً. في كلّ صباحٍ كنّا نركض إلى العامود الثالث على الجادة الملتوية مثل أفعىً جريحة بين النّخيل. كنّا نهتف «**عباس حامل لواء الحسين، حرٌّ بدرٌ وحُنين**»، كان الشباب يردّون الجواب وهم يضربون الأرض بأقدامهم.

ليلة العمليات

ومضت أيّامٌ وأيّام. في أحد الصباحات، وبعد المراسم، جمع الأخ «**زندي**» كل الشباب في غرفة، وبدأ بالحديث، بشّر «**زندي**» بأنّ العمليّاتِ قريبةٌ جدّاً. الشّباب الذين يعدّون اللحظات حسرةً في انتظار العمليّات، عندما سمعوا هذا الكلام انفجروا مجهشين بالبكاء، تبدّل درس شرح العمليّات إلى مجلس عزاء. نهض «**مهدي صابري**» من زاوية الغرفة وقال: «**إذا أسأت لأحد أرجو المسامحة**»، أسكت السيد «**علي جعفري**» الشباب قائلاً: «**اعرفوا قدر بعضكم بعضاً**»، كانوا يبكون وهم يردّدون «**حسين يا حسين**» لاطمين رؤوسهم وصدورهم.

وأخيراً.. إنّها ليلة العمليات، قيل لنا بأنّ اللّيلة هناك «**عمل**» لفيالق أخرى وأنّنا سنلتحق بالعمليات في مراحل أخرى. بدأت العمليات في الساعة الثانية عشر ليلاً، في ذلك الوقت قرأنا دعاء التوسّل، ودعونا الله لنصرة المقاتلين، بعد انتهاء الدعاء تحرّكنا نحو ضفّة النهر، وشاهدنا القنابل المُضيئة التي كانت تُنير مناطق العمليّات. القنابل

العنقوديّة المُضيئة كانت تُشير إلى أهمّيّة العمليّات وحساسيتها.

عند شروق الشمس، أطلّت الطائرات، أصوات انفجارات متتابعة كانت تصلنا من بعيد، حتى معسكرنا لم توفّره الاشتباكات، فنال نصيبه من المدافع الثقيلة للعدو. كان تأكيد المسؤولين دوماً «**لا تتحرّكوا أبداً بدون أن تكون الأقنعة معكم**». ومع أنّ طائراتِ العدوّ كانت تُغير كلّ عدة دقائق للاستطلاع، أو القصف، إلّا أنّ الشباب كانوا غير آبهين، وينتظرون فقط الأمر بالتحرّك، بعضهم جلس في الزّوايا ممسكاً رُكبتيه بيديه، وغارقاً في التفكير، البعض الآخر كان يتمشّى بين النّخيل في مجموعات من اثنين أو ثلاثة، وهناك من وضع عدّةَ جسورٍ عائمةٍ بالقرب من بعضها، وقام بركوب القوارب، كانت رائحة الانتظار تفوح من كلّ حركات الشباب وسكناتهم، الجميع كان يُقطّع الوقت، إلّا أنَّ لكلٍّ واحدٍ أسلوبه.

عند ذهاب كتيبة «**عمّار**» إلى منطقة العمليات، تصوّرنا أنّه لم يبقَ سوى القليل لذهابنا. ليلاً، قدّموا لنا شرحاً للعمليات على الخريطة، وأعطوا التوجيهات، على الرغم أنّه صار مُكرّراً عدة مرات. بعدها أُقيمت مراسم دعاء ومجلس عزاء، أثناء الدعاء وصل خبرٌ بأنّ قذيفةً قد أصابت إحدى غرف كتيبة «**حبيب**»، وأنَّ هناك شهداء وجرحى.

ذهب بعض شبابنا إلى فناء كتيبة «**حبيب**» للمساعدة. في

الليل نمنا ونحن في حالة استعداد وتأهُّب. كانت أصوات الانفجارات المتعاقبة كأنّها أغنية حداء لنا كي ننام.

عند شروق الشمس، أُبلغنا بأن نجمع أغراضنا ونستعد للتحرّك، التحرّك! ولكن ليس نحو منطقة العمليات وإنّما إلى «**كرخة**»، ماذا يعني هذا ؟! كان الشباب فقط ينظرون إلى بعضهم بعضاً، كان القلق يقطر من عمق النّظرات، عندما تكلّم الأخ «**درويش**» فهمنا بأنّ العدوّ قد عرف خطّة عملياتنا، وجهّزوا أنفسهم جيّداً لردّ الهجوم، ولهذا فإنَّ الفيلق لم يدخل إلى منطقة العمليات.

صعدنا إلى الحافلات، رُغماً عنّا، وانطلقنا نحو «**كرخة**»، لكنَّ ذكرى القوات التي نفّذت عمليّات بالأمس وقدّمت العديد من الشهداء، لم تغب عن خاطري.

في أمان الله يا «**بهمن شير**»،

في أمان الله أيتها النخلات الباسقات،

في أمان الله أيها الليل المُفعم بالرموز والأسرار،

في أمان الله يا عمليات «**كربلاء٤**».

كانت «**كرخة**» تنتظر، بلا صبر، لقاء أحبّائها. حين وصل الشباب فَرشت شقائق النعمان البرّية بساطاً تحت أقدامهم، لقد عادوا، ولكنّهم متعبون وقلقون، قلوبهم بقيت منقبضةً لعدّة أيام، مثل سماء متلبّدة بالغيوم، جاء بيان الإمام، في تلك الأيام، كماءٍ صُبّ على النار،

حيث هدّأ روع الجميع، لقد أوصى الإمام الشباب بالصبر وبشّرهم بفتحٍ عظيم.

أقمنا احتفالاً بمناسبة ذكرى ولادة أحد الأئمة الأطهار عليهم السلام، قدَّم «**شاداب**» وعددٌ من رفاقه عرضاً مسرحيّاً، أنشد السيد «**علي جعفري**»، أشغل الشباب أنفسهم بهذا الاحتفال، إلى أن عاد التداول بين الشباب بخبر الذهاب مجدّداً. الليلة الماضية، بدأ مقاتلو الإسلام في منطقة «**شلمجة**»، والتي هي من أمنع خطوط العدو، بعمليات «**كربلاء ٥**»، كان نداء العمليات المقدّس «**يا زهراء**».

«وصلت هذه النّغمةُ إلى مسامع القلب
بأنَّ أرضَ الجبهة قد اشتعلت شوقاً ولهيباً
حان زمان «كربلاء ٥»
انتهى عهد الهجران والعذاب
أقيم عزاء السّيّدة الزّهراء
يا لهذا الحماس العجيب في الجبهات
نطوي دروب الصحارى والوديان
لنأخذ بثأر السّيّدة الزّهراء».

بعد ثلاثة أو أربعة أيّام من التحاق عدة كتائب من الفيلق بجبهة «**شلمجة**»، وصَلَنا الدَّور في هذه المرة أيضاً، وأصبحنا ضيوف

معسكر «**كارون**»، خرجنا من «**كرخة**» ليلاً، وصلنا إلى معسكر «**كارون**» قبل أذان الصبح بقليل.

بعد إقامة صلاة الصبح، أنزلنا أوتاد الخيام من الشاحنة، ونصبنا خيام العشق هناك، بنينا عدّة حمّامات أيضاً على مسافة مناسبة من الخيام، أنجزنا كل الأعمال حتى الظهر لننطلق عصراً في المشي والتجوّل، وبالنا مرتاح. خيّم الليل، فقام الزهّاد من الخيام إلى خارجها، كانت القنابل العنقوديّة المضيئة تُرشدنا إلى أطراف منطقة العمليّات.

«يا بن الحسن!»

في الصباح، قُدّم لنا «**الهمبرغر**» كفطور، وكان الغداء دجاجاً، تحلّينا بعده بالبرتقال والحلويات، كان الشباب يقولون: «**بعد هذه الضّيافة الملكوتيّة، لا أحد يعلم أيّ منام قد شاهدوه لنا وأي خطّة يريدون تنفيذها!**» عصر ذلك اليوم، طُلب من الكتيبة التأهب، وقيل لنا: تراصفوا بتجهيزاتكم الكاملة، كان الشباب يخرجون من الخيام فرداً فرداً، ومجموعةً مجموعةً، وينظرون إلى الخيام نظرةً ذات مغزى، نظرةً لسان حالها يقول: «**لن تريني بعد اليوم، سيحملني عشقي إلى كربلاء**». كانت الوجوهُ متألّقةً، والأقدامُ ثابتةً، والجميع مستعدّاً للحرب.

وقفت عدة شاحنات «**مايلر**» في الفناء، بعد أن أغرقت المعسكر بالغبار والتراب عند تحركّها، وقف الشباب صفّاً واحداً وعبروا من تحت القرآن، ثم ساعدوا بعضهم بعضاً على الصعود إلى الشاحنات، حين انطلقت بدأ الشباب باللّطم، فيما كان بعضهم يترنّم بآية الكرسي،

كانت الشاحنات تعبر من جادّة الأهواز- خرمشهر، إلى أن وصلنا إلى مثلث وجادة الشّهيد الحاج محسن صفوي، كان طرفا الجادّة يغصّان بالدّبّابات وبطّاريّات المدافع وقوات المشاة. لقد تكاتف الجميع لتلبية أمر الإمام، كانت الشمس تميل إلى الغروب، ونسيم «**شلمجة**» العليل يُرحّب بالمقاتلين. أخيراً أنزلتنا الشاحنات في مقر الشّهيد «**شمران**»، على يسار الجادة، هناك قلعة كبيرة مترامية الأطراف. تم إحداث مواقع استقرار مؤقّتة حولها. استقرّت كل مجموعة من الفصيلة في أحد المواقع، التفت «**محمد زندي**» إلى الشباب وقال: «**أينما تحرّكتم، كونوا هنا بعد نصف ساعة**». ذهبت للوضوء مع عدد من الشباب، إلى نقطة إطلاق النار القريب من هناك.

في طريق عودتنا، رأينا «**محمد زندي**» وقد تهيّأ للصلاة، في هذا الوقت، مرّت شاحنة «**تويوتا**» مسرعة بالقرب منّا، كانت تحمل قرابين العشق، العشّاق الذابلين، تأخذ أجسادهم الطّاهرة إلى مقرّ «**معراج الشهداء**»، حين رأى «**محمد زندي**» هذا المشهد، قال بصوتٍ عالٍ: «**يا ابن الحسن، من يدري ما الذي سيحلّ بنا هنا؟!**» فضحكنا معاً من قوله. بعد هذا، عندما كان الشباب يتعجّبون من شيء، يقولون: «**يا ابن الحسن!**» فرش الشباب البطانيات التي أحضروها معهم على أرض موقعهم، عند الغروب، حلّت ساعة الخلوة؛ كلّ منهم اختلى بصاحبه يناجيه شاكياً همّ قلبه.

حين حلّ ظلام الليل، ظهرت شاحنات «**التويوتا**»، إنّه وقت الرحيل، اصطفّ الشّباب في مجموعاتٍ متراصّةٍ خلف الشاحنات، تشكّل منظر رائع في لوحة متكاملة: حركة السّيّارات وهي ترتفع ثم تنخفض في التلال والوديان مع أصوات الشّعارات الحماسيّة، وتوسّل الشّباب بالأئمّة وعتمة الليل، أصداء الانفجارات المتتابعة، وأضواء القنابل المضيئة الملوّنة. منذ انطلاقها، سارت الشّاحنات وهي مُطفأة المصابيح، ما يدلّ على حساسيّة المنطقة التي نتواجد فيها.

تحت الضوء الخفيف للقنابل المضيئة الخفيف، كان منظر وجوه الشباب لافتاً للنظر؛ وجوهٌ تجمع بين الحزم والإطمئنان، خاصة تلك الوجوه التي كانت قطرات الدمع تغطي وجناتها، وكأنها غارقةٌ في الوحدة، وسط كل هؤلاء الأصدقاء، كان الشّباب ينشدون معاً، وما أجمل ما كانوا يردّدونه!

«**يهبّ نسيمٌ يُنعش الرّوح**

يحمل أريج الكرب والبلاء

يا حسينُ، يا حسينُ، يا حسين»

بعد عبور عدة سواتر رمليّة، وصلنا إلى السّاتر الأخير، وفي أول مكان انخفض الماء فيه ـ بعد المدّ والجزر ـ وبانت القناة، نزل «**زوّار كربلاء**»، واستقروا (تموضعوا) داخل أقنية الخط الأوّل بالقرب من الجادّة. الهدية الأولى من «**الإخوة العراقيين العملاء**» كانت عبارةً

عن قذيفةِ مدفعيّةٍ سقطت بالقرب من القناة، أيقنّا حينها أنّه زمن الحرب وموعد الامتحان، ما درسناه حتى الآن في جامعة الجبهة، ينبغي أن نؤدّي امتحانه. تذكّرت بشكلٍ عفويٍّ كلام الدّكتور شمران: «**حين يُدقّ نفير الحرب، يتمّ تحديد الرّجال من أشباه الرّجال**».

تراصّ الشباب صفاً مرصوصاً بإمرة الأخ درويش داخل القناة. وقف كلّ واحدٍ في المكان المخصّص له، ثم تحرّك الصّفّ بشكلٍ منتظمٍ. كانت الشّفاه تترنّم بذكر الله، كانت القذائف تتوالى، وتسقط حول القناة وفي داخلها، وصدى أصواتها يتردّد في السّهل والصّحراء.كان صفُّ المشاة يعبر الجادّة بموازاة جدار «**قناة السّمك**». كان يمكن مشاهدة دشم العدوّ وهي تحترق بنيران غضب بواسل البحر.

في المسير، وعلى مدّ النّظر، كانت الجثث منتشرةً، وفي أماكن عديدةٍ كانت جثث جنود الأعداء مرميّةً بعضها فوق بعض، عندما كان الشّباب يرون هذه المشاهد كانوا يتأكّدون من المصير السّيّئ الذي ينتظر المُعتدي، وأخيراً وصلنا إلى السّور الأساس للبحيرة.

في ظلام الليل، كانت القنابل المضيئة للأعداء تُشكّل هادياً

ودليلاً جيِّداً لنا. تقدّمنا خلف السور، إلى جهة اليسار، حيث كانت قوات «**فيلق ٢٧**» مستقرة، حين وصلنا إلى النّقطة المحدّدة، انشغل الشباب بتجهيز الحُفر الفرديّة. بقليلٍ من البحث والاستطلاع، عرفنا أنّ الشّباب في مقدّمة السّور، قد اشتبكوا مع دبّابات العدوّ التي كانت تجول بأنوارها الكاشفة بحثاً عنهم. بين الحين والآخر، كانت قذائف الآر بي جي الحمراء تنطلق نحو الدبّابات. كُنّا نشاهد كلّ هذا من فوق السّور. كانت أصواتٌ تهتف بنا «**لا ترفعوا رؤوسكم!**» لكنّ الشّباب لم يكونوا ليُبالوا بهذه التّحذيرات.

حين أشرقت الشمس، تناولنا طعام الفطور، وتجوّلنا في السّور عدة مرات. أُحضر عدة شهداء وجرحى من خط فيلق «**١٠ سيد الشهداء**» فقمنا بإيصالهم إلى «**مثلّث طرق الشهادة**»[١]، ورجعنا.

(١) تقاطع طرق خلفي معتمد لإيصال واستلام الإمدادات والجرحى والشهداء، وأطلق عليه هذا الاسم «**مثلث طرق الشهادة**».

الاشتباك

عند الساعة الحادية عشرة قبل الظهر، أُبلغنا بأنّ العراقيين قد اخترقوا المنطقة. وهنا حدثت مشكلة جديدة. حيث إنَّ عدداً من شباب كتيبة «**مسلم بن عقيل**» وصلوا إلينا من وراء السور، كانت رؤوسهم ووجوههم داميةً، وأنفاسهم لاهثة، أخبرونا، وهم يُشيرون لنا إلى أماكن العراقيين، عن الجهة التي نفذ منها العدوّ، وكيف أنّه التفّ حاليّاً على «**كتيبة مسلم**». الأخ درويش، والذي كان على تواصل مع الخطوط الخلفية، قال للشباب: «**انطلقوا لمساعدة شباب فيلق١٠**».

كان العراقيّون قد تجاوزوا «**كتيبة مسلم**»، والتفّوا عليها بشكل كامل، حين تحرّكنا للأمام، فرّ عدد من العراقيين. من الطرف المقابل خلف حقول القصب، بدأ إطلاق النار.

لم يكن الشباب قد انتشروا جيداً في المنطقة، لكن في كل لحظة، كانوا يتحضّرون للاشتباك. لم تنقطع نيران العدو حتى للحظة واحدة. بعد حوالي مسافة خمسمائة متر، رحّب العراقيّون بنا، من خلف الدّشم،

عبر رمي القنابل اليدويّة علينا. لم نُصدّق حتى الآن بأنّنا بدأنا الاشتباك والقتال بهذه السرعة. مع أنّ أصوات انفجارات القذائف والقنابل ونيران الدبابات المباشرة تحبس أنفاس أيّ كائن حيّ، إلّا أنّ الشباب كانوا يقاتلون بنفس مطمئنة بذكر الله. في هذه الأثناء، جُرح «**أحمدي**» برصاصة أصابت حُنجرته، فتمّ نقله إلى الخلف. «**أخذ إجازة**» كما يتندّر الشباب! بعد أن عبرنا نقطة، كانت تنفجر فيها عدّة قنابل في كل لحظة، تمكّنا من الوصول إلى شباب الكتيبة.

في الطريق، شاهدنا جثمان الشّهيد السّيّد «**علي جعفري**»، كان أعلى جمجمته قد قُطع بشظية، وارتحل إلى المستقر الأبديّ. كانت الصّيحات مرتفعةً وراء الحصن، كان «**رنجه**» يكرّر قوله للشباب: «**اذكروا الله وتوسّلوا بالأئمّة**». كان شباب «**الفصيل ٢**» أيضاً، قد اشتبكوا مع العدو إلى جهة اليمين خلف دشم هلاليّة الشكل. كان الشباب يذهبون مجموعاتٍ متتاليةً لإطلاق النار من فوق الحصن. قال «**محمد زندي**»: «**من الأفضل أن يذهب الشباب للدّشم الخلفيّة**».

ذهبنا، أنا و«**صابري**» و«**كريمي**» إلى الدشم كي يتمكّن الشباب بشكل تدريجي من تغيير موقعهم والحركة نحو الدشم الخلفية. كان العراقيّون قد وصلوا إلى مسافة أمتار قليلة منّا، وكان يفصل بيننا رمية قنبلة يدوية فقط. كان «**مهدي صابري**» قد حرص بكل لهفةٍ

أن يُحضر معه جعبة ظَهر مليئةً بالقنابل اليدويّة، ألقاها تِباعاً على رؤوس العراقيين من وراء الحصن. العراقيّون بدورهم «**بادلوه التحيّة بمثلها**»، فأصابني نصيبٌ من نثار شظايا جرحت قدميّ بشكلٍ خفيفٍ. استغلّ العراقيّون هذه المناوشات كي يصلوا إلى الجهة المقابلة من الدّشمة، ويُطلقوا النّار علينا من داخل حقول القصب. امتلأت مخازن الذخيرة التي كانت إلى جانبنا بالوحل، وكانت جُعب الرّصاص مُكدّسةً فوق بعضها. كنت أنا و«مهدي صابري» نرمي الرصاص رشقاتٍ تلي رشقاتٍ ونضحك معاً! كانت جُعبة «**الآربي جي**» تُضايقني كثيراً. كان الشباب، ومن أجل تحسين مستوى عملهم، قد تركوا تجهيزاتهم مفتوحة.

رجعنا قليلاً إلى الخلف، فوصلنا إلى الشباب، اللّه وحده يعلم كيف كان الوضع خلف الحصن، كان صعباً، ولا يمكن تحمّله. رغم أنّ رؤية هؤلاء الجرحى والشهداء، كانت تُؤثّر على الشباب روحيّاً، إلّا أنّ كل تفكيرهم كان في المعركة، وكان همّهم الأول هو المقاومة والشهادة.

كانت المعارك تشتدُّ أكثر فأكثر في كل لحظة، كان الشباب يتناوبون على الصعود فوق الحصن وإطلاق رشقات الرصاص على أنحاء المنطقة، وشاء اللّه، أن يقوم رامي «**الدّوشكا**» العراقيّ، دون أن يدري ماذا يفعل، بإطلاق نيرانه بشكل غزير على القوّات العراقية نفسها.

ذهبت الى «**زندي**» وشرحت له الوضع، قال: «**لا يمكن الاستمرار هكذا، ينبغي أن نتقدّم عدّة دشم إلى الأمام**». رجعتُ إلى الشباب المشتبِكين مع العدوّ، كانت قذائف المدافع لا تسمح بأيّ لحظةٍ من الأمن والهدوء، تكلّمت مع الشباب وتفاهمنا، وبسرعة كنّا نكبّر ونحمل معاً على العدوّ حملة رجلٍ واحدٍ.

أشفقت على العراقيين! لقد ظنّ المساكين بأنّ هناك عملاً ضخماً وتطوّراً مُفاجئاً، فلاذوا جميعهم بالفرار. تقدّمنا دشمتين إلى الأمام، كان الشباب من فوق الحصن يطهّرون المنطقة مفرّغين فيها مخازن بنادقهم كي يُكملوا السّيطرة بإحكام.

في هذه الأثناء، أصابت رصاصةٌ مُعاديةٌ رأسَ «**أفسري**»، فوَقع بين يدي «**مهدي صابري**»، كانا في هذه الأثناء قد قاما بمؤاخاة بعضهما، والآن يشهد «**صابري**» شهادة رفيقه وأخيه. «**دميرجي**» الذي كان قد ترك جهازه اللاسلكي وجعبته مسرعاً لمساعدة الشباب، استشهد فوقع ساجداً حين إصابته.

كانت شمس «**شلمجة**» تميل إلى الغروب، وكان نسيمٌ منعشٌ للرّوح يُداعب أجساد الشهداء. انتهت الاشتباكات، خلال دقائق ساد المنطقة صمتُ القبور. لم يعُد يُسمع حتّى صوت طلقةٍ واحدةٍ. حلّ ظلام الليل، لكنّ جثامين الشهداء لا تزال على الأرض، كان الجرحى يُناجون الله وكأنّهم عاتبون، حيث لم يُدعوا لمحضر

الحق. كان الأخ «**سروري**» ممدّداً على نقّالة الإسعاف، وقد قُطعت رجلُه، يفتح عينيه مُستعيداً وعيه قليلاً، ومن ثم يُغشى عليه. نقلنا الجرحى والشهداء إلى الخلف، ذهب الشباب بوجوههم الموحلة وبدلاتهم الدّامية، إلى خنادق وراء الحصن، كي يستريحوا هُنيهة بعد معركة غير مُتكافئة.

كذلك جاء الشباب، الذين كانوا قد اشتبكوا عند الدشم الهلالية، إلى هذه الجهة، وبدأوا بتفقّد أصدقائهم ورفاق سلاحهم، فُقد أُسِرَ الأخ «**نوش آبادي**» في هذه المعركة، فيما زيّن ثوبُ الشهادة قامات «**سلماني**» و«**مقبلي**» وعدد من الأخوة في «**الفصيل٢**»، ونال بعضهم وسام الجراح. وجدنا، أنا و«**رنجه**» و«**شجاعي**» خندقاً خالياً على مسافةٍ قريبةٍ، فجلسنا نستريح بعد جهد ساعات، شربنا عصيراً بارداً، وغرقنا في النوم. كذلك في النوم كنّا مع كلّ الشّباب نأنس بهذه الآمال التي تحقّقت، فجأة، كسر نومنا الهانئ صوت انفجارٍ مهيبٍ لقذيفةِ مدفعٍ سقطت بالقرب منّا، ثم توالت القذائف تنفجر على جدران الحصن واحدةً بعد أخرى، كذلك فعلت القذائف المباشرة للدّبّابات...والتي سلبت الهدوء والسّكون، وبدأت تدكّ الحصن الذي كان يهزّ «**كمهد الأطفال**»، كما قال الشباب، واستمرّت لعبة النّار هذه حتى الصباح.

مثلّث الشهادة

عند السَّحَر، سُمع صوت الأذان من مكانٍ بعيدٍ، تيمّمنا وصلّينا ونحن جالسون، بدأ الصّباح عندنا بالسّخرية من العراقيّين وضحكنا مليّاً. كان طعام الفطور عبارةً عن علب «**الطون**»(التونة).

عند الصّباح فقط يمكن تناول غذاءٍ كاملٍ. ارتفعت الشمس قليلاً إلى الأعلى، لا تزال المنطقة هادئةً وساكنة، كانت المدافع البعيدة من الجهتين تتبادل القصف، ولا شأن لها بنا حتّى الآن، انطلقنا أنا و«شاداب» نحو مثلّث الشهادة لإحضار الفاكهة والطعام، التقينا في مسيرنا بحشودٍ غفيرةٍ من قوات المشاة المشغولين بالحديث خلف الحصن، كان نور الشمس قد وجد طريقه إلى داخل المتاريس، وأضفى دفئاً لذيذاً على جمع الشباب، كان «**جماعة**» صواريخ «**الماليوتكا**» قد بدأوا بصيد الدبابات التي كانت تجهّز مدافعها للرمي، وصلنا إلى مفترق «**مثلث الشهادة**»، كانت شاحنات «**التويوتا**» تصل بأسرع ما يمكنها، وتُخلي حمولتها، وتغادر على الفور، قال لنا أحد شباب

الخدمات: «**خذوا ما يلزمكم وارجعوا فإنّ المكان هنا مُعرّضٌ لنيران العدوّ**»، لم يكد يُنهي كلامه حتى انفجرت قذيفة على «**مثلث الشهادة**»، ناشرة شظاياها في داخل الخندق. حمل «**شاداب**» كيساً كبيراً من قناني المياه المعدنية، وحملت أنا كيساً مليئاً بالمُعلّبات والعصير، وتحرّكنا باتجاه خطّ محورنا. في منطقة مثلث الشهادة يمكنك الحصول على أيّ شيء من الذخائر والتّجهيزات والرّصاص، حتى أنواع الطعام والشراب، مروراً بالعطر والجرائد، وكذلك المكسّرات والشوكولاتة، حتى أنّ هناك جثامين عدة شهداء قد وُضِعت جانباً بشكل منتظم، ولكن للأسف لا يمكن البقاء كثيراً بسبب كثافة نيران العدو.

كانت الساعة قد اقتربت من التاسعة، حين بدأ العراقيّون بإطلاق النار. وعندما لاحظ الشباب عدم دقّة وفعاليّة القصف المُعادي، بدأوا الرّدّ بسهولةٍ، وبدون رهبةٍ تُذكر.

جمع معاون الكتيبة بعضَ الشباب جانباً، وقال لهم: «**كي نتمكّن من الدّفاع بشكلٍ أفضل، علينا أن نتموضع على الساتر التّرابيّ الأماميّ**». أطلق الشباب الذين كانوا مُستعدّين للتّحليق عشقاً وشوقاً تكبيرةً واحدةً وقفزوا من الحصن. على الرغم من غزارة نيران «**الدوشكا**»، وأنواع القذائف والرصاص حولهم، ثم هجموا باتجاه السّاتر التّرابيّ. حين أحسّ العدوّ بهذه الحركة، أطلق

مدافع الدّبّابات بشكلٍ مباشرٍ، فاستُشهد أحد الأخوة الأعزّاء. إنه دور «**رجبياني**»، وها هو يرحل أيضاً.

عند شهادة «**رجبياني**»، صرنا أكثر إصراراً على الوصول إلى الهدف، والسّيطرة عليه. وهكذا تجاوزنا كل المشقّات ووصلنا واستقّرّينا هناك. بقينا حتى وقت الغروب، كانت السّاعة حوالي الرابعة عصراً حين قام «**الأخوة العملاء**» العراقيين -وبدون أن ينسّقوا معنا أو يستشيرونا- بإطلاق النّار بغزارة على خندقنا. لا شيء سوى النار والدخان، حين خفّ ضغط النّار قليلاً، عرفنا بأنّ «**السّيّد الطباطبائي**» أيضاً قد ارتشف كأس الوصال بعد إصابته بشظيّةٍ في رأسه. حين حلّ الظلام، جاء «**بريد**» الكتيبة وقال: «**اجمعوا كل أغراضكم وانسحِبوا للخلف!**». جمع الكل وسائلهم، ولُفّ الجثمان الطّاهر للسّيّد ببطانيّة، ورجعنا إلى خلف الحصن.

أسرع الشباب، الذين كانوا قد ابتعدوا عن بعضهم لمدّة نصف نهار، لتفقّد أحوال بعضهم بعضاً. كان صوت الأحاديث والضحكات يملأ أرجاء المكان، كان مُقرّراً أن يأتي شباب «**دعم الفيلق**» لأخذ الجثامين الطاهرة للشهداء، أخبرونا بهذا بواسطة اللاسلكي من المقر المركزي للفيلق، وبطبيعة الحال كنّا ننتظرهم. حاولنا أن نجمع الشهداء في مكانٍ واحدٍ، كانوا أربعةَ شهداء: السيد«**طباطبائي**»، و«**رجبياني**» من كتيبتنا، وشهيدين من كتائب أخرى. في هذه الأثناء

التقيت بـ«**كرمنشاهي**» مسؤول مجموعات كتيبة «**الشهادة**». كنّا، أنا وهو، واقفين عند جثامين الشهداء، وبشكلٍ مفاجئ، ملأت رائحة عطّرت أجواء المنطقة.

مرّت لحظات ونحن نفكّر بهذه الرائحة متعجّبين مندهشين. نعم، لم نكن مُخطئين، إنها رائحة عَطِرة في ذلك الجو الذي لم يكن فيه سوى النار والبارود والطين، إنه أريج عطر الشهداء، وقد ملأ الأرجاء. بقي «**كرمانشاهي**» متعجّباً ينظر إلى الشهداء، قال وقد خنقته العبرة: «**مطلق**»! ترى هذا، ينبغي أن تلمسه بيدك كي تُصدّق، ثم مسح دموعه وتوجّه نحو الحصن حيث دارت الاشتباكات سابقاً. قال لي: «**اغتنم هذا، لو لم يكن عندي عمل ضروري لبقيت عند الشهداء حتى الصّباح، في أمان الله**».

كان الظلام قد حلّ بشكل كامل، وكانت نجوم سماء «**شلمجة**» تتغامز مع الشهداء. وأنا كذلك، كنت قد ذُبت وجداً في الشهداء، وصل شباب «**التعاون**»، ومعاً نقلنا جثامين الشهداء على حمّالات، ومن هناك أخذوها بالسّيّارات، قلت في قلبي: «**في أمان الله أيها المتحرّرون من القيود، في أمان الله أيها الرفاق، مباركٌ لكم منزلكم الجديد، احملوا سلامنا إلى جميع أصدقائنا المسافرين**».

بعد أن أسكتنا آخر قذائف العدو، ونظراً لموقع المنطقة،

رجعنا إلى الوراء بمقدار خندقين، في هذه الأثناء، أضاع الشباب عدّة أكياسٍ صغيرةٍ من الأطعمة والبسكويت والعصير والمُكسّرات، حين تذكّرت هذه القضية، أخبرت «**شاداب**» بها، ولكن لم تكن تستحق منّا أن نُخاطر بالذهاب للبحث عنها، فلا بدّ أنّ العراقيين قد وصلوا إليها منذ أيام عدة، ولكن «**شاداب**» المُتحرّر من كل قيود العالم، انطلق أو إذن، كي يُحضر أكياس الطعام، في ظُلمة الليل قفز إلى الجانب الآخر من الحصن وبدأ بالركض. انتظرت رجوع «**شاداب**» والقلق يلفّني، بعد عشر دقائق، تناهى إلى مسامعي صوت وقع أقدام تركض، ثم تقفز. لم يكن غير «**شاداب**»، وقد عاد مع الأكياس العامرة. في تلك الليلة أكلنا، وشربنا، وضحكنا كثيراً.

روضة الرضوان

في اليوم التالي، أُخبرنا بأنّه قد تقرّر أن نسلّم خطّ التّماس إلى قوّات أخرى، بدأ الشباب يجمعون المعدّات على مضض، اشتدّ القصف على «**مثلث الشهادة**»، لذا لم تستطع السّيّارات أن تصل إلى الخطّ المتقدّم. وعليه، عندما حلّ الظلام، تحرّكنا سيراً على الأقدام، وبصفٍّ متراصفٍ نحو «**مثلث الشهادة**»، ومن ثمّ المقرّ «**التكتيكي**» لقوّاتنا. كان قد استُشهد وجُرح عددٌ من شباب الكتيبة، ولهذا كانت القلوب مُنقبضة، كان البعض ينشد والباقون يُردّدون:

«رحل الأحِبّاء عن هذا المنزل،

غرباء كاحتراق شُموعنا، واحتراق الفراشات

حيثما نظرتُ وشاهدت الأحياء

ما عاد غير الرّماد والدّم،

خرابات خرابات»

بعد عدّة كيلومترات من المسير، وصلنا إلى المقر «**التكتيكي**»، هناك ركبنا شاحنات «**التويوتا**»، كلّ الأنظار كانت شاخصةً نحو خطّ التماس، إنّه صوت «**مجيد زارجي**»، وقد هزّ أعماق الجميع: «**أيها الشّباب! في أمان الله، مقبلي، سلماني، سيد طباطبائي، رجبياني، أيّها الشّهداء، إننا راحِلون! في أمان الله. غصّ الجميع دفعة واحدة وأَجهشوا بالبكاء**». انطلقت شاحنات «**التويوتا**» وليس من مرهم يُداوي عيون الشباب المُتعبة الدامعة سوى غُبار الطريق الذي كان يُلامس وجناتهم اللطيفة، ويستقرّ عليها. في أمان الله يا «**شلمجة**»، في أمان الله أيها الشّهداء!.

عُدنا مجدّداً إلى مُخيّم «**كارون**»، لكننا أكثر تعباً وهرماً هذه المرة، كان فِراق الأحباء الشهداء قد كسر ظهورنا، لم يكن من حاجة بأن ننطق أي كلمة عن الشهداء، فالخيام والنّخل وهذه الأرض وما عليها، كلها فهمت كلّ شيءٍ، وكأنّها كانت تتحدّث معنا بلُغةٍ لا كلام فيها! كانت الخيام الخالية والطقس الغائم الضبابي وأصوات عواء ابن آوى، تزيد نيران القلب توهّجاً واشتعالاً. ستة عشر شهيداً ارتفعوا من مجموعتنا فقط، إضافة إلى عدد من المجروحين.

إنّه الليل، جلس الشباب تلفّهم الغربة والوحدة، يقرأون عزاء الشهداء، ويبكون فراقهم. كانوا يقولون أطفِئوا كلّ الأنوار، حتى

ذلك المصباح الصغير الخافت الضوء، إن لم يكن نور الشهداء، فلا مكان لأيِّ نورٍ آخر.

كانوا يبكون ويترنّمون:

رحلوا جميعاً نحو الله

ولكنّي بقيت مسودَّ الوجه

رحلوا جميعاً وبقيت وحدي

أضعت رفاق دربي

الذين تعوّدوا على ذكر الله

فاستقرّوا في روضة رضوانه

أيّها القلب! الأحبّاء العشّاق رحلوا سريعاً

تركوا هذا الوادي فرحين

بقيت أنا وأنت كالمُستنقع الرّاكد

فهنيئاً لمن رحل كالنّهر الجاري

عند الصباح، حين وقفنا صفّاً مرصوصاً للقيام بالمراسم الصّباحيّة، تكلّم الأخ «درويش» شاكراً الإخوة ومُثنياً على جهودهم، وموضِحاً باختصار وضع المنطقة وكيفية سير العمليات، وقد طلب من جميع الشباب عدم التقدّم بطلبات مأذونية؛ لأنّ الكتيبة ستجدّد قواها، وتستعدّ للعمليّات القادمة.

وبالطبع فقد فرح الجميع لمنع المأذونيّات، انتظرنا مجيء

القوّات الجديدة لعدّة أيام، بعض الشّباب مِمّن كانت جراحهم طفيفة، بدأوا يتوافدون بشكلٍ تدريجيٍّ، ويلتحقون بجمعنا. كنّا نسير ويأخذنا الحديث لوقت متأخّرٍ ليلاً في خيام مقر «**كارون**»، كانت أجواء الخيام الصغيرة تستمدّ النّضارة والحيويّة من أنفاس الشّباب الدّافئة.

طائرة لكلّ مقاتل !

في أحد الأيام، كنّا قد اجتمعنا في إحدى الخيام لأداء صلاة الظّهر جماعةً، وإذا بطائرات العدو تُطلّ برؤوسها فوقنا، كانت الطّائرات تأتي دائماً للقصف أو للتصوير، ولكن ليس كهذه المرة، حوالي خمسين طائرة – ما بين مروحي وحربي –جاءت دفعة واحدة، كنّا جميعاً نظنّ بأنّها كالعادة ستُحدث بعض الضّجيج، وبمُجرّد إطلاق المُضادّات فإنّها ستلوذ بالفرار، ولكن هذه المرّة لم تكن كسابقاتها. عند انفجار أوّل دفعةٍ من الصواريخ قرب الخيمة، بدأ الشباب يشعرون بجدّيّة الموضوع، بعضهم التجأ إلى الحُفر، وآخرون لم يُبالوا وأكملوا صلاتهم وكأنّ شيئاً لم يحدث.

كانت الطائرات تصل أسراباً أسراباً، وتخفِّف من أثقالها برميها علينا، وقد انتهى دور المضادات الأرضية عمليّاً بسبب كثرة عدد الطائرات، والتي استمرّت في غاراتها، ووصلت بها الوقاحة إلى ملاحقة الشّباب فرداً فرداً عبر إطلاق النار عليهم بالمدافع الرّشّاشة، كذلك

كانت القنابل العنقوديّة تتساقط كالمطر فوق المخيم. لحسن الحظّ اقتصرت النّتائج على عددٍ من الجرحى. أُصيب مخزنٌ للذخيرة في إحدى الغارات، وتصاعد الدّخان الأسود إلى عنان السماء، كانت قذائف الآر بي جي وأنواع القنابل والرصاص تنفجر في المخزن واحدةً بعد الأخرى. كان الشباب يُعلّقون بأنّ العراقيين يحتفلون بانتصارنا، ويُطلقون الأسهم النّاريّة والمفرقعات بالمناسبة!

وخلاصة القول، إنّ الطائراتِ العراقيّةَ قد وفّرت موضوعاً لضحك الشباب، احترقت عدة خيامٍ من معسكر كتيبة «**الشهادة**»، ولكن، ولحسن الحظ لم يتأذَّ أحد.

مرّت عدّة أيام، أرسلوا عناصر جديدة للالتحاق بكتيبتنا، أغلبهم كان من الشباب الثّانوي في الحرس. شدّ الشباب همّتهم، فصار عندنا مجموعةٌ (سريّة) مُكوّنةٌ من أربعة فصائل، وجاهزةٌ للقيام بالعمليّات. كنت أنا في الفصيل الأوّل، والذي تولّى «**جواد بابايي**» قيادته، و«**زندي**» الذي كان مسؤولنا سابقاً، نُقل إلى طهران للعلاج بسبب إصابته برصاصةٍ في عينه.

في الأسبوعين الماضيين كان شباب كتيبة «**حمزة**» قد استلموا خطّ التّماس، واستطاعوا بشكل فعّال صدّ عدّة هجماتٍ عراقيّةٍ.

بعد أيّام، صدر الأمر بالتحرّك. هذه المرّة أرسلوا لنا حافلاتٍ لنقلنا إلى هناك. انطلقنا عند الغروب بعد السّلام والصّلوات. كان

الظّلام قد أرخى سدوله حين وصلنا إلى نقطة الشهيد «**شمران**». لقد تغيّرت هذه النقطة كثيراً. فما كان مرآباً للدبابات تحوّل إلى خنادق ومتاريس دافئةً ومُريحةً. أصبحنا، وبدأ نهارنا بإقامة صلاة الجماعة، وزيارة عاشوراء.

بعد تناولنا لفطورٍ دسمٍ ومتنوّعٍ، أُخبرنا بأنّنا سنيمّم وجهنا شطر خطّ التّماس حوالي السّاعة الثّانية أو الثّالثة بعد الظّهر. غمر الشّوق والحماس كلَّ الشباب. كان وجه «**شاداب**» يزداد تألّقاً كلّما اقترب موعد الرّحيل، وكذا كان مزاحه وضحكه يتضاعف. كان الجو يُذكّر الإنسان بكربلاء؛ حيث كان أصحاب الإمام الحسين عليه السلام يزدادون توهُّجاً ونشاطاً كلّما اقترب زمان شهادتهم. كان الجميع مُستعدّاً للتحليق والطيران.

الشظيّة الذهبية

كان عددٌ من الشباب قد وقفوا قرب الجادّة يُلوّحون بأيديهم لكلّ سيّارةٍ تعبر الطريق، وكانوا فرحين. مع اقتراب زمان الإنطلاق، ظهرت طلائع شاحنات «**التويوتا**». تحرّكنا عند الساعة الخامسة عصراً نحو المقر «**التكتيكي**». بعد نصف ساعة كنّا نتجوّل في فناء المقر. عندما غابت الشمس، طُلب منّا أن نُلازم الخندق وأن نستعدّ للذهاب. لحسن الحظ كان خندق الدّعم قريباً منّا، فصار الشباب يذهبون مجموعةً مجموعةً ويعودون محمّلين بالأطعمة والشوكولاتة، وكما عبّر «**شاداب**»: «**بأنّ الأفواه كانت كلها تتحرّك**». أنا كذلك كنت قد أحضرت كمّية من المكسّرات والحلوى، وصرت أُوزّعها بين الشباب، وإذا بشظيّةٍ ذهبيّةٍ تختارني لتكون من نصيبي! أخذوني إلى قسم الطّوارئ، وبعد مدّة رجعت إلى الشباب، قال بعضهم مُمازحاً: «**رجعت مجدّداً يا عم! قلنا بأنّك رحلت، وينبغي أن نراك في مقر «المعراج»**» (مكان تأبين الشهداء).

كنّا قاب قوسين أو أدنى من النّوم في الخنادق، حين نبّهنا صوت «**بابايي**» يقول: «**اخرجوا واركبوا الشاحنات، سنتحرّك**». خرج الجميع. اصطفّت مجموعةٌ من الشاحنات القديمة لنقلِنا إلى خط التماس. مع أنّني لم أكن أستطيع المشي بشكل طبيعيٍّ، ولكنّي لم أشأ أن أتخلّف عن الشباب.

ركبنا الشّاحنات وانطلقنا، في الطريق انفجرت عدة قذائف بالقرب من الجادّة، ولكنّ أصواتها ضاعت مع أصوات صرير الشّاحنات القديمة. أخيراً عبرنا كل المنعطفات والمنحدرات والمرتفعات، ووصلنا إلى خط التماس. اختلف وضع المنطقة كثيراً عن المرّة السابقة. «**مثلّث الشهادة**» لم يعُد كما كان، وصارت السيارات تعبر بسهولة حتى بداية خط التماس. وصلت الشاحنات حتى لامست السواتر التّرابية، وفُتحت الأبواب كي نترجّل. تراصفنا صفّاً مرصوصاً، وتحرّكنا باتجاه الخطّ الأمامي. كان الخط ساكناً هادئاً لا يُعكّر صفو ظلمته سوى بعض القنابل المضيئة التي كانت تُطلَق من وقت لآخر، فتساعدنا في اجتيازنا للطريق بشكل أسرع. وصلنا إلى الخنادق وتموضعنا في الأماكن المحدّدة لنا. لم يمنعنا التعب المُنهِك من الغرق في نومٍ عميقٍ لذيذٍ، ولكنه كان قصيراً حتى وقت السَحر.

بعد صلاة الصبح، تبادلنا الحديث، إلّا أنّ التعب لم يكن قد

زال عن أجسامنا. مع ارتفاع الشّمس خفّت البرودة قليلاً على ضفّة البحيرة، والآن يطيب النوم... طاب لنا ولذّ، فاستيقظنا لتناول الفطور بعد السّاعة التّاسعة، كان فطوراً شهيّاً ومتنوِّعاً، لكنّ الطعام لم يكن قد استقرّ في الامعاء، حتى صرخ شباب الحراسة: «**العراقيّون قادمون**».

ظنّنا أنّ هذا هجوم جديد، ولا عجب من هذا، فخط التّماس كان هادئاً لعدّة أيّام خلت، كان شباب كتيبة «**حمزة**» يقولون «**لا جديد**». أسرع الشباب فأحكموا ربط أحزمتهم، وذخّروا أسلحتهم، واتّخذوا مواضع قتالية خلف السّاتر التّرابي. ذهبت أنا وبعض الشباب إلى نقطة تقاطع الساتر الترابي مع الحصن لإحضار الذخائر. كانت نيران العدو تشتدّ بشكلٍ تدريجيٍّ. كانت القذائف تسقط واحدةً تلو الأخرى على الأرض بالقرب منّا. حملنا عدة صناديق ذخيرة، وتحرّكنا نحو خط الدعم. «**فروزانفر**»، وهو رامي «آر بي جي»، قال لنا، وهو يُجهز قذيفته الصاروخية: «**سأتقدّم إلى الأمام، قوموا بتغطيتي**». صارت نيران القصف أقوى وأشدّ. كانت القذائف تنفجّر بالقرب من الحصن مُرسلةً أعمدة الدّخان إلى عنان السماء، لتحبس نفس أي موجود حيّ في صدره. في طريقنا إلى «**الدّعم**» شاهدنا عدداً من الشباب الذين كانوا ينقلون الجرحى للمعالجة. أكثر الجرحى كانوا من طلاب ثانوية الحرس، الذين حضروا مؤخّراً من طهران.

سألت: «**كيف الأوضاع في المقدّمة**»؟

قالوا: «**الأوضاع حسّاسة جدّاً**»

أسرعنا إلى خط الدعم، في الطريق، شاهدنا «**فروزانفر**»، والآر بي جي بيده، قد افترش تراب الخندق بعد أن أسلم روحه لخالقها. كان وجهه هادئاً ورصيناً. احتبست الدموع في عينيّ. منذ قليلٍ كان يتناول طعام الفطور معنا، والآن...

انبطِحوا!

انطلقت مجدّداً بعيونٍ تُبلّلها الدموع. كان الشباب كلهم يتحرّكون؛ كل واحد منهم على طريقته. كان العراقيّون قد وصلوا إلى وراء الحصن، وبدأوا بإلقاء القنابل اليدوية، لحسن الحظّ كنّا قد أحضرنا عدّة صناديق قنابل يدويّة. كان الوضع رهيباً خلف الحصن. استشهد عدد من الشباب، وسقطت أجسادهم على الطريق. سألت «**حسن بتريزيان**» عن «**جواد بابايي**»، قال: «**جالس داخل القناة**»، أردت أن أتوجّه نحو القناة، منعني الشباب. قلت: «**أريد أن أذهب إلى «بابايي»** لأرى ما يمكن عمله»، قال الشباب وبشكل طبيعي جدّاً: «**لقد استشهد**».

كان الهجوم قاسياً جدّاً. «**صابري**» و«**لرني**» وعدد آخر من الشباب استشهدوا في القناة الثانية، ومع هذا فقد وقف الشباب وصمدوا أمام العراقيّين، وبالطبع كان وضعُ خط التماس غنيّاً عن التّعريف والوصف. استمرّت الاشتباكات والرّصاص والقنابل المتبادَلة. فجأة وقعت عدة

قنابل يدويّة بين الشباب. للوهلة الأولى ظننت أنّها سقطت من الصندوق الذي كان في يدي، ولكن حينما التفتُّ إلى أنها بدون ضامن صرخت عاليّاً «**انبطحوا**».

انبطح الجميع، مع أنّ قنبلتين أو ثلاث قد انفجرت بيننا، إلّا أنه، لحسن الحظ، لم يتأذّى أحد، جُرح بعضهم بشكلٍ طفيفٍ جدّاً.

اشتدّت الاشتباكات أكثر، المسافة بيننا وبين العراقيّين صارت أقل من عشرة أمتار، كان الشباب قد عبّأوا أكياساً رمليّةً حتى نصفها، ووضعوها جانب السور، والآن صاروا يطلقون النّار من ورائها، جلس عددٌ من الشباب وراء الساتر التّرابي وهم يُعبّئون الرّصاص في مخازن الرشاشات. قال لنا الأخ «**خانجاني**»، وكان في الطرف الآخر من الخندق يتحدّث عبر جهاز اللاسلكي، «**لا تتجمّعوا هنا!**».

كان أغلب الشباب في عِداد الجرحى أو الشهداء، لم يكن العدد أكثر من خمسة عشر، كان يفصلنا عن خط الجبهة ومنطقته الحسّاسة حوالي ٥٠٠ م، وكان أكثر الشباب موجودين ضمن هذه المساحة، والباقون قد تحصَّنوا خلف الساتر الترابي على فواصل مُتباعِدة. في هذه الأثناء، شاهدت «**آصفي**» مشغولاً، ويتحرّك بنشاط، يساعد الشباب، يرمي «**آر بي جي**»، يُعبّئ (المخازن) أو (البنادق)، يُلقي قنابل يدوية أحياناً. جلست إلى جانبه وسلّمت

عليه، ردّ عليّ السلام. بعد سؤاله عن أحواله، ساعدته في تعبئة المخازن. أُطلقت عدّة رصاصاتٍ من بين الأكياس، تعجّبت كثيراً، وقلت للشباب: «**انتبهوا! هناك رصاصٌ يُطلق من بين الأكياس**».

لم أكد أنهي كلامي، حتى أصابت إحدى الرّصاصات «**آصفي**» الذي سقط أرضاً بالقرب منّي، صار «**آصفي**» بوجهه النّوراني ينظر إليّ ويُكلّمني، ولكنّ الضّجيج كان قويّاً، فلم أسمع ما كان يقوله بدقّة. ثم شدّني إليه بيده، وتسمّر نظره إلى نقطة ما، ثم أسلم الروح، وما أجمل ما أنهى به حياته! مشهدُ عُروجِ روح آصفي يملأ ذهني، سحبت جسده الطّاهر إلى إحدى الزوايا كي لا يبقى على الطريق. كانت حالتي مُتقلِّبة؛ كان كل فكري بـ«**بابايي**» و«**صابري**» و«**فروزانفر**» و«**آصفي**» و...، لكن ماذا يُمكن أن أفعل؟ الآن ليس وقت هذا الكلام، ولعلّه وقته، وأنا غافل.

دخلت في القناة. كان رصاص القنّاصة وقذائف الدبابات يُغطّي الأجواء فوق القناة، ومشهد جثامين الشهداء يُشبه حقل شقائق النعمان، بصعوبة وجدت جثمان «**بابايي**» ، عرفته من خوذته المعدنية، والتي كان قد كتب عليها «**أريد أن أبقى حيّاً**»، والحقيقة هي أنّه قد وصل لمُراده في حياةٍ حقيقيةٍ وأبديّةٍ. ألقيت نظرةً إلى خارج القناة، فإذا بعددٍ من العراقيّين يفرّون في الحقل، كانت جُثث العراقيّين وراء الحصن مُكدّسةً فوق بعضها.

«إعادة البناء»

كانت الساعة تشير إلى الواحدة ظهراً. وعليه فإنّ هجوم العدوّ قد استمر أربع ساعات، وتم صدّه وردّه بالإيثار والمقاومة والتّضحية بالنّفس. لم نكن قد تناولنا طعام الغداء، من جهة أخرى، كان التّعب والإنهاك يضغط عليّ، فيكاد يُغمى عليّ، لذا قرّرت أن آكل شيئاً ما وأن «**أعيد بناء نفسي**» كما يعبّر الشباب.

في القناة كان هناك الكثير من العصير والمعلّبات، ولكني لم أجد مفتاحاً لها. فغيّرت رأيي بـ«**إعادة البناء**» مجبوراً، في هذه الأثناء، جاء «**يونسي**»، وقال: «**الشباب يريدون قنابل يدوية**».

كان الهجوم قد انتهى، ولكن لا بأس بإحضار قنابل يدويّة من باب الاحتياط.

كان رصاص الأعداء ما زال ينهمر، وكذلك القذائف التي تهطل إلى ماشاء الله، كزخّات المطر فوق رؤوسنا. قلت للسيد: «**هيّا نذهب لإحضار القنابل**».

أجاب السّيّد: «**عدد الشباب هنا قليل، من الأفضل أن أبقى**».

انطلقت لوحدي، على الرغم من ألمٍ في الظّهر والقدم، ركضت إلى وراء السواتر التّرابيّة، وحملت صندوق قنابل ورجعت. في الطريق، لمحت الجثمان الطاهر «**لفروزانفر**»، وضعت الصندوق على الأرض، وجلست قليلاً بالقرب منه ناسياً الزّمان والمكان، كانت من أكثر اللّحظات صفاء وعمقاً لإدراك معنى الشهادة.

كان «**فروزانفر**» أكثر حناناً، حتى من أيّام حياته! أحسست بالهدوء قليلاً، أخذت الشّال، الذي كان يضعه على عنقه، للبركة والذكرى. بعد مضي سنوات متمادية لا زال يعبق برائحة شلمجة.

متعبٌ أنا، لكني مفعمٌ بالأمل، تحرّكت نحو خط الدعم، لم يبق شيءٌ لم أشاهده في الطريق: الخوذ المعدنيّة، جثث القتلى العراقيين الذين هلكوا في بدايات العمليّات، الأقنعة الكيميائيّة، زجاجات المرطّبات، الجعب، وسائل الحفر وغيرها...

وصلت منهكاً إلى الخط، وزّعت القنابل اليدوية بين الشباب، ورجعت. قرب الخندق، سقطت قذيفة هاون ٦٠، أصابت بضع شظايا قدمي. في البداية، اعتقدت أنّ قدمي قد قطعت. نظرت، فإذا هي لا تزال مكانها، لكنّ الدَّمَ كان يفور منها. شظيّةٌ أخرى استقرّت في كتفي، وبصعوبة بالغة وصلت إلى الخندق، أخذت

كوفيّةً وربطت قدمي فوق مكان الإصابة، لكنَّ الجرح لا زال ينزف. قلت في نفسي: «**إنّ جسدي لا يزال حارّاً**»، لعلّني أستطيع أن أرجع للوراء، إذا بقيت هنا فليس هناك من يأخذني. لا زال الجرح ينزف.

اتخذت قراري، استعملت قذيفة آر بي جي كعكاز أتوكأ عليها، ومشيت وأنا أعرج. ولأنّي سرت خلف الحصن، وإلى جانب بحيرة السمك نحو مثلث الشهادة، كنت مجبوراً أن أقطع كل المسافة مشيّاً. بسبب هجوم العدو، كانت السيارات تصل فقط إلى مثلث الشهادة، والذي كان معرّضاً دائماً لنيران القصف. قطعت المسير الطويل لخط الدعم نحو المثلث على آخر نفس، حين اقتربت، لمحت عدّة شاحنات تويوتا، فأسرعت، علني أصل فتقلني إحداها إلى الطوارئ، لكنّها استدارت ورجعت قبل أن أصل.

كنت أشاهد أشياء غريبة وعجيبة في الطريق؛ كجثث العراقيّين المتعفنّة، والتي ما إن وصلت إليها، حتى سقطت عدة قذائف بالقرب مني، فاضطررت للزحف، واصطدمت ببعض أشلاء القتلى، صرت في وضع لا أُحسد عليه من الوساخة والإرهاق والغثيان.

وحدي، ولا أحد حولي، شعرت بالخوف قليلاً، في تلك اللحظة ظهرت «**تويوتا**» على خط ـ ٢٥ كربلاء ..

استطعت بصعوبة بالغة الوصول إلى الطريق، ورفعت يدي للسائق، الذي كان شهماً، فأوقف شاحنته على الرّغم من القصف.

فتحت الباب بسرعةٍ، وارتميت على المقعد، ألقيت قذيفة الآربي جي خارجاً، وأقفلت الباب. رؤية السائق لقدمي النازفة جعلته يضاعف السرعة.

قسم الطوارئ

كانت الطريق مليئة بالمطبّات، ما جعل الشاحنة ترتفع وتهبط باستمرار. في هذه الأثناء، سقطت عدة صواريخ «**كاتيوشا**» على يمين الطريق ويسارها، فكان نصيب الشاحنة منها عدة شظايا سطحية أصابت إحداها السائق، ولكنها، ولله الحمد، كانت طفيفة. ذهبنا إلى الإسعاف بهذه «**التويوتا**»، نزلت من الشاحنة بصعوبةٍ بالغةٍ. حاولت جاهداً الوقوف على رجلي، لكن دون نتيجة، كدت أقع أرضاً، حملني اثنان من شباب الإسعاف، وأدخلاني إلى الخندق.

كان الجوّ مختلفاً في قسم الطّوارئ، كان الأطبّاء والمسعفون يتوزّعون على الأسِرّة. حين دخلت، استلقيت على سريرٍ؛ مثل بحّارٍ استطاع أن يصل إلى شاطئ الأمان، بعد صراعٍ خطيرٍ وسط الأمواج العاتية.

لكن الوضع لم يستمر هكذا، كان المسعفون يحاولون، عبر مزاحهم وضحكهم، أن يرفعوا معنويّات الجرحى. لكنّ وضعي كان أصعب من

أن أتجاوب معهم، فحين كنت أسمع صوت تمزّق ثيابي بواسطة المقص، غبت عن الوعي، ولم أفهم ما جرى بعد ذلك.

حين فتحت عيني، وجدت نفسي في قاعة مظلمة، ولم أكن وحدي، بل كنّا كُثر. وكان هناك عالم دين يتجوّل بين الأسِرَّة، متفقّداً أحوال الجرحى.

لا أدري لماذا انتابني شعورٌ بالغربة. كان قلبي وفكري على خطّ التّماس، حيث كان الشباب، حيث هوت أجسادهم. كلّما تذكّرت الرفاق كان الدمع يحجب الرّؤية عن عيني، وخاصة حين تذكّرت «**جواد بابايي**» و«**فروزانفر**»، سالت الدموع على خدّيّ، وسيطر البكاء عليّ، فلم أعد أرى سوى خطّ الدّعم، ومشاهد الاشتباكات.

في هذه الأجواء، أحسست أنّ يداً فكّت كوفيّة «**فروزانفر**» عن عنقي، ومسحت بها دموعي، ظننت للحظة أنّه هو، «**فروزانفر**»، ولكن حين دقّقت النّظر، رأيت عالم الدين، قال: «**لماذا تبكي؟**»

قلت: «**لقد تذكّرت الرفاق**».

قال وهو يبتسم: «**علّني أزعجتك، وقطعت عليك خلوتك**»؟

ثم وضع الكوفيّة فوق يدي، وذهب.

سحبوني بالسرير إلى غرفة أخرى للتصوير الشعاعي.

بعد أخذ الصورة، تبيّن أن لا كسور في جسمي، والشظية التي اخترقت جنبي، توقّفت قرب النخاع الشوكي، «**ولا خطر حاليّاً**»،

أوضح الطبيب، لكنّ المشكلة بالكمّيّة الكبيرة من الدم التي نزفت، وتحتاج إلى أيّام كي يتم معالجتها، وبعدها يمكنني الخروج. أعطوني إبرة، فغرقت في النوم.

حين استيقظت، أحسست بأنّني داخل مستشفى، وبصعوبةٍ بالغةٍ استطعت أن أسأل بعض الممرّضين، الذين كانوا يتنقّلون بالقرب مني، «**أين أنا؟**».

ولكن لم يجبني أحدٌ، نظرت إلى سريري، رأيت زجاجة مصلٍ، وكيس دم يتدليان فوق رأسي، أخيراً أشفق أحدهم علي، وقال: «**هنا مستشفى طالقاني في الأهواز**»، سألت ممرّضاً: «**لماذا أنا في الممر**»؟.

قال: «**إنهم يُنظّفون الأَسِرَّة، وسينقلونك إلى الغرفة. طالت مدة تنظيف وترتيب الأَسِرّة، حوالى الساعتين. كنت أتألّم، وكانت أعصابي متوتّرةً من جهة، ومن جهةٍ أخرى كان جوُّ الممرِّ بارداً جدّاً، وكنت أفقد طاقتي بشكل تدريجيّ**».

لم تكن الممرضات يولين أهمية لأيِّ شيءٍ، لا اهتمام بنا، ولا اهتمام بوضع حجابهن، كان تعاملهن مع الجرحى قاسياً جدّاً.

لم أكن أعلم إن كان هذا لكثرة ما شاهدن من جرحى، أو أنّهنّ، بالأصل، مخالفاتٌ للثّورة والحرب والمقاتلين! سحبتْ إحدى الممرضات سريري بعصبيّةٍ ظاهرة إلى الغرفة، ووضعت المصل وكيس الدم فوق السّرير وذهبت، أمّا أنا فوضعت اللحاف فوق رأسي، وغرقت في نومٍ عميقٍ.

«ما زلت حياً؟»

كم كنت أرغب أن تمُرَّ تلك الأيام في ساعاتٍ قليلةٍ، فمن ناحية، كنت مستاءً من كل ما في المستشفى، ومن جهة أخرى، لم أكن أعلم ما حلّ بكتيبتنا، وأين هم الشباب، كنت أتوق للالتحاق بالكتيبة بأسرع ما يمكن.

قصدت الطبيب عدة مرات، راجياً إياه: «**إنّ حالتي جيدة، أستطيع أن أمشي بسهولة، بمساعدة العصا. بالله عليك أعطني إذناً بالخروج، أعدك أن أستريح، قلبي منقبضٌ هنا، بالله عليك اسمح لي بالخروج**».

وأخيراً، ضاق الطبيب ذرعاً، وكتب لي إذناً بالخروج، أخذت من مكتب مؤسَّسة الشّهيد، في المستشفى، لباساً، وعصاً، ومبلغاً من المال، وخرجت بقدمٍ عرجاء بعد قضاء أربعةِ أيّامٍ في المستشفى.

أوصلتني سيّارة إسعاف إلى تقاطع خرّمشهر، ومن هناك ذهبت بشاحنة تويوتا إلى مخيم كارون، شكرت السائق كثيراً، ثم ترجّلت عند أوّل الطّريق التّرابيّة المؤدّية إلى كتيبة كميل.

مشيت نحو خيام الكتيبة، متوكّئاً على عصاي، كان الضّوء ينير الخيام، ولكنّها كانت ساكنةً. كانت النّجوم ترافقنا، وتلمع فوقنا كعادتنا. أما اللّيل فكان لطيفَ النّسمات، ومؤنساً جدّاً. بضع خطوات تفصلني عن فناء الكتيبة، ولكنَّ قلبي ينبض بسرعة متسائلاً عمّا حدث هنا؟

لماذا يخيّم هذا السّكون المهيب؟ الخيمة الأولى، كانت خيمة تقسيم العمل والتعاون، أزحت بعصاي طرف باب الخيمة، كعادته، كان «**حسين غيازة**»، المعروف بـ«**ضد الرصاص والشّظايا**»، يجلس هناك سليماً معافى.

دخلت وسلّمت عليه، تعجّب حسين لرؤيتي، وصاح: «**ما زلت حيّاً؟**».

قلت: «**عمر الشَّقي بقي؟ ماذا نقول عنك، وقد أصابتك كل هذه الطلقات والشّظايا، ولم تؤثّر بك شيئاً؟ بالمناسبة ألم تعلم بأنّي جرحت**»؟.

قال حسين: «**لا يا عمّ! ظنَّ الجميع بأنّك سقطت، وبقيت جثتك عند الانسحاب**».

حين سمعت كلمة انسحاب اقشعرَّ بدني، وانخطف لوني، وقلت له: «**ماذا، انسحاب، هل انسحبتم**»؟.

تأوّه حسين بحسرة، وقال: «**نعم، ليتك كنت معنا، انسحبنا، وأيّ**

انسحاب كان، لقد كان ضغط العراقيّين شديداً قاسياً، لقد شاهدتَ أنت بدايةَ ما حدث».

ساءت حالتي عند سماعي هذه الأخبار، سألته، ماذا عن الشباب؟

قال: «**بعضهم استشهد، وبعضهم جرح، وبقي الجميع في أرض المعركة، ما عدا قليل انسحب، واستطاع الرجوع إلى الخلف».**

قلت: «**مجيد زارجي»؟**

قال: «**استشهد».**

قلت: «**خانجاني».**

قال: «**استشهد».**

قلت: «**سراج»؟**

قال: «**بقي هناك».**

كلّ من سألت عنه، كان قد استشهد، أو بقي هناك، وفقدت آثاره.

كدت أموت من الحزن والغصّة، نهضت، ومشيت بعرجتي نحو خيمة مجموعتنا، حين صرت قرب الخيمة، سمعت صوت ضحكات «**مجيد زارجي**»، قلت في نفسي: «**هذا ما ينقصني، أن أصاب بالتوهّم، رفعت باب الخيمة، رأيت الشّباب قد جلسوا مجتمعين معاً».**

الشباب كلهم بخير، وهم داخل الخيمة، لقد فعلها بي: «**حسين غيازة».**

رأيت أغلب الشباب في الخيمة، ما عدا من جُرِح منهم. إلى الآن

لم أعرف بالضبط من الذي استشهد، ومن الذي بقي في أرض المعركة، وأخيراً اتضح كلّ شيءٍ، بقيتْ جثامين أربعة من الشباب بالقرب من السّور.

و تراجع الشباب مسافة عن بحيرة السمك.

في تلك الليلة، بقيت مستيقظاً حتى الصباح من شدة الحزن والغضب. هنيئاً لأولئك الذين رحلوا شهداء.

لقد قطفت الشهادة ورود شقائق النعمان

شاهدوا اللّه بعين القلب والوجدان

يا أخت الشّهيد قبّلي قبر أخيك

لقد صار الحجر بالشهادة لائقاً بالتقبيل.

طهران تحتفل

في صباح اليوم التالي، وصل خبرٌ بأنّ الكتيبة ستنتقل إلى «**دوكوهه**»، ومن ثم إلى طهران لقضاء المأذونية، وهذا ما حصل، تم جمع وتوضيب الخيام من «**كارون**» والتي كانت آخر مقر لهجرة الأحبة، وضعنا كل التجهيزات في الشاحنات وودّعنا «**كارون**».

كان الظلام قد خيّم عندما وصلنا إلى «**دوكوهه**». ذهبنا منهكين إلى مبنى الكتيبة، غطّ الجميع في سبات عميق، بقيت أنا وبعض الجرحى فقط مستيقظين حتى الصباح من شدّة الألم.

عند الصباح، وبعد تناول طعام الفطور، استعد الجميع للانطلاق نحو طهران، لم أكن أرغب بأن يعرف أبي وأمي بأنّي جرحت، بقيت في «**دوكوهه**» حتى يتحسّن وضعي، وأتمكّن من المشي دون عصا، وكذلك أحببت أن أستغلّ فرصة البقاء لوحدي في خلوة لأيّام.

استقلّ الشباب الحافلات وانطلقوا، بقيت وحدي في مبنى كتيبة كميل مع ذكرى الشهداء الراحلين، هذه المرّة كان المبنى في حداد

وعزاء على أحبائه، حيث إنهم لم يرجعوا إلى حضنه المؤنس.

قضيت عدّة أيّامٍ جميلةٍ في «**دوكوهه**»، تحسّنت حالتي، وصرت أستطيع المشي بشكل طبيعي جدّاً. كل صباح، تنطلق حافلة من «**دوكوهه**» إلى طهران. بما أنّني تماثلت للشفاء، جهّزت حقيبة السفر، وحضّرت نفسي للتحرّك إلى طهران.

عند الصباح، حملت أغراضي وتوجّهت إلى الميدان كي استقل الحافلة.

التقيت هناك بأحد الرّفاق القدامى من كتيبة «**مالك الأشتر**»، إنّه «**شهيدي**»، وقد وصل اليوم من طهران. بعد التّحيّة والسّلام، سألته عن الأوضاع في طهران، فأخبرني أن الشّوارع مزيّنةٌ، والاحتفالات تعمّ العاصمة بعد الانتصارات التي حققها الشباب. بعد ستة أشهر على حضوري إلى هنا، وبعد سماعي ما قاله «**شهيدي**»، زاد شوقي للعودة، وها أنا في الطريق إلى طهران.

بعد كل هذا الغياب عن المنزل، احتفوا بي بشكلٍ كبيرٍ، حاولت كثيراً إخفاء مسألة جُرحي، لكنَّ شغف أمّي، ودقة ملاحظتها، أوصلها إلى الحقيقة، وعرف الجميع بالأمر.

لقاء العاشقين

في أيّام المأذونيّة، استطعت أن ألتقي «**جواد سليماني**»، فرحت كثيراً بلقائه، وأنا الذي كنت أظن أنّه مفقود ولا يوجد أيُّ خبرٍ عنه. وأخيراً، انتهت المأذونية، شهران أعددت فيهما نفسي للحرب، وعزمت على لقاء العاشقين، أصرّت أمي عليّ كي أبقى في طهران عدّة أيّام أخرى، ولكن لا عمل لي في هذه المدينة، فرحلت.

كانت ثكنة «**ولي عصر**» مزدحمةً جدّاً، فقد جاء الجميع لوداع الرّفاق، أو للاستعلام عن مفقودين لهم، كان والد «**فروزانفر**» قد جاء لوداع رفاق ابنه الشهيد، وكذلك فعل شقيق الشهيد «**نوش آبادي**». أطل «**جواد سليماني**» عند الظهر، صار «**جواد**» بالنسبة لي كـ«**فروزانفر**»، و«**صابري**»، و«**بابايي**»، و«**رنجه**». فقد كان صديقاً مؤنساً ورفيقاً طيّباً.

حين أكون معه لا أشعر بأيّ غربةٍ أو وحدةٍ.

كان جواد قد شارك في عمليّات الكتيبة مع شباب فيلق «**١٠ سيد الشهداء**» قبل عدة ليالي، وأُصيب بشظيّةِ قنبلةٍ يدويةٍ في يده التي لا

زالت في الجبيرة، كان يقول: «**على الرغم من عدم تحسّن حالتي، ولكني لا أستطيع البقاء في طهران، وقال عندما قالت لي أمي: «إبق حتى تشفى يدك جيّداً»**، أجبتها: «**أنت تقولين لي، إبق، ولكن هناك من يدعونني ويقول لي: تعال**».

بقيت كلمات جواد هذه تتردّد في مسامعي وخاطري دائماً. قلت لجواد «**أحقاً ما تقول؟ ستحلّق هذه المرة**»؟

تحرّكنا من ثكنة «**ولي عصر**» بالحافلة باتجاه الجنوب نحو ملتقى العشاق، نحو مخيم «**كرخة**»، مجدّداً نحو «**كرخة**».

بمجرّد وصولنا إلى «**كرخة**»، تذكّرت الليالي المقمرة، وازدحام الخيام، ومعنويّات الشباب قبل العمليّات.

كانت خيام المجموعات التي نصبت قبل العمليّات، لا تزال واقفة، لا تزال أغراض الشباب في داخلها، أغراض الكل، من استشهد ومن بقي حيّاً. فصلنا حقائب الشهداء عن البقية كي نسلّمها لـ«**التعاون**». تم أخذ بعض أغراضهم كسجادة الصلاة، والكوفية، وعصابات الرأس كذكرى منهم.

مع كل نضارتها، لم يعد لـ«**كرخة**» ذلك الصّفاء القديم، لأنّ غياب الأحبّة عنها قد ترك بصماته عليها.

«**كرخة**»! يا معبدَ أنصار الله

«**كرخة**»! يا مشهدَ إعجاز الله

عطرُ ترابك، شفاءُ همومنا

«**كرخة**»! يا صدرَ الأرض المغمومة

لماذا انطفأتْ أنوارك هكذا؟

«**كرخة**»! يا مؤنسة عشّاق الحسين

أنصارٌ، والدُهم شيخُ خُمين

«**كرخة**»! هل تعلمين ما حلَّ بنا؟

لقد بقينا، ورحل الطّيّبون

«**كرخة**»!هل تعلمين أيّ حزن نعاني؟

هل تروين قصة مَأْتمنا وحِدَادنا؟

هل صار قلبك صخرةً صمّاء؟

هل ضاق صدرك مثلنا؟

«**كرخة**» حرقة مَن، أشعلتك؟

و من تنتظر عيناك على الطريق؟

«**كرخة**»! أين مخيّمُ أحبائك؟

«**كرخة**»! أين صوتُ ترتيلُ قرآنك؟

«**كرخة**»! أين مناجات أسحارك؟

لا خبرَ عن أعزّائك

«**كرخة**»! ألمك الذي تخفينه

سببه هجر الأحبة، وأنا أعلمه

«**كرخة**»! لقد رحل أحباب الله

كلّهم رحلوا على اسم الزهراء
أعلم أي غمٍّ يشعل وجودك
و أعرف معاناة ترابك
بسكون، تطول لياليك
وحيدة تبقين في حسرة أنغام الصلاة.

شكّلت الكتيبة سريَّة وقسّمت الفصائل، كانت الخيمة الخاصّة بالفصيل «**رقم واحد**» من نصيبنا هذه المرة، وعلينا أن نتجهّز للعمليّات.

تم إعفاؤنا، أنا وجواد، من التّمارين اللّيليّة، والمراسم الصّباحيّة، ولهذا كنا نذهب كلّ صباح الى «**دزفول**»، أو إلى القرية الواقعة وراء «**كرخة**». في تلك الأيام سررنا كثيراً ببقائنا معاً، كما أنّ يد «**جواد**» تعافت ونزع الجبيرة عنها.

بعد مرور أيام، بدأ رفاق الكتيبة القدامى يطلُّون واحداً تلو الآخر، ومنهم «**أرقند**» الذي، وعلى الرغم من المشاكل والمشاغل لديه، لم يستطع أن يقنع نفسه بالبقاء في طهران بعد شهادة أصدقائه المقرّبين، مثل «**رنجه**»، و«**شاداب**» و«**بابايي**».

سُرّ الجميع لحضور«**أرقند**»، وقد اختلف هذه المرة عن المرّات السابقة، أي أنّ عطر «**الرحمن**» كان يفوح منه. كان «**الفصيل واحد**» ملتقى «**المجموعة**» القديمة. وقد عُيِّن «**أرقند**» مسؤولاً للفصيل.

هيهات هيهات

مضت الأيام على هذا المنوال، إلى أن وصل خبر تكليف الكتيبة بمهمّةٍ جديدةٍ، وهي المشاركة في عمليات «**كربلاء ٥**» التّكميليّة.

انطلقنا مرة أخرى نحو «**شلمجة**»، لكن لم نذهب إلى «**مخيم كارون**»، بل مضينا في مسير واحد من «**كرخة**» إلى منطقة العمليات مباشرة. كان يوماً جميلاً وماطراً، جاءت الحافلات لنقل لشباب إلى «**شلمجة**»، وها نحن مجدّداً على الطريق المليئة بالذكريات، جلست بالقرب من جواد، حتى وصلنا الى «**شلمجة**».

كانت أوضاع المنطقة، هذه المرة، مختلفةً كثيراً عما قبل، وكما يقال إنَّ هناك تغييرات ملحوظة، وتقدّم واضح في مجال التجهيزات والاستعدادات. كانت مروحيّات «**الكوبرا**» الخاصة بقواتنا تُحلّق بشكل متتالٍ فوق الحصن، فيرفع شبابنا أيديهم ملوّحين لها.

لم يمض وقت طويل حتى أطلّت شاحنات الـ«**تويوتا**»، التي أطلق عليها شبابنا اسم الـ «**تويوتات الفدائيّة**»؛ لأنّ مقصورتها، وقضبانها

الحديدية، كانت قد نزعت كي لا تلفت أنظار العدو.

على أي حال، استقلينا الشاحنات بتجهيزاتنا الكاملة، وانطلقنا نحو خطّ التّماس. كان لكلٍّ منّا معنويّات وحالٌ خاصّة. إلّا أنَّ «**أرقند**»، و«**جواد سليماني**»، كانا مسرورين جدّاً. كان بعض الأخوة يحدّق بالسماء وآخرون ينشدون:

عازمون على السفر، إنّهم أنصار الحسين

ارفع يديك بالدعاء، يا مولانا الخميني

وكان نداء العشّاق هذا ينفذ ويرسخ حتى أعماق الروح. وجوه لن تمحى من خاطرنا أبداً. وضحكات كانت تسخر من الخوف والرعب.

لا تراجع عن هذا السفر، هيهات هيهات

لا تعب عند الراحلين، هيهات، هيهات

كان بعض الشباب قد حضروا إلى هذه المنطقة للقتال مرّات ومرّات، لكن لا ترى أيَّ أثرٍ للتعب على وجوههم.

توقّفت شاحنات التويوتا بالقرب من دشمة اسمنتية ضخمة عبارة عن طابق تحت الأرض. ترجّل الشباب بسرعة ودخلوا إلى الدشمة. كانت نيران قذائف العدوّ تتساقط بعنفٍ على الجادّة. عندما صرنا جميعاً داخل الدشمة، دُهِشْنا، ما هذه الدشمة الكبيرة؟

كانت أشبه بقاعةٍ كبيرةٍ، من الصّعب التّصديق بوجود مكانٍ كهذا في صحراءَ قاحلةٍ، الكهرباء تنير المكان، ولا تُسمع أصوات القذائف والانفجارات في الداخل، صلى الشباب المغرب والعشاء جماعة، ثم أُقيمت مراسم عزاء، وكانت مؤثّرة جدّاً.

بعد المراسم، قام «**العم عابدي**» بشرح خطة العمليات للشباب بشكل كامل. هذه المرة كان ينبغي علينا الاشتباك مع العراقيّين في المكان الذي يدعى «**قناة السمك**»، أو الحواجز الدّائريّة. عندما عرف الشباب بأنّ معركتنا حسّاسة، فرحوا واستبشروا خيراً.

سابقاً، كانت قد أنيطت مهمة تحرير الأهداف المحدَّدة مسبقاً بعدة كتائب من الفيلق، لكن لم يُكتب لها التّوفيق، والليلة وقعت على عاتق «**كتيبة كميل**».

تأهّب!

وصلت شاحنات التويوتا، أو «**تاكسيات الجنة**»، كما يسمّيها الشباب. خرجنا من الدشمة، واستقلّينا الشاحنات. انفجرت عدة قذائف بالقرب منّا، ما دفع بالسائقين إلى الضغط بقوة على دواسات البنزين ومضاعفة سرعتهم. بعد حوالي ربع ساعة، وصلنا إلى ما قبل خط التماس بمئات الأمتار، ترجّلنا وقطعنا بقية الطريق منتظمين في قطار الصّفّ المرصوص.

أثناء المسير، أوضح «**أرقند**» تفاصيل العمليات، ووزّع العمل على الشباب. كان «**جواد سليماني**» يسير خلفي، لم يسكت لحظة أثناء المسير، فضحكنا، وضحكنا.

صوتُ لاسلكي أحد شباب الاتصالات بالقرب منا، جعل «**جواد**» يظنّ بأنّه صفير قذيفة تسقط علينا. الأمر الذي جعلني أنفجر من الضحك، كنا نحن نضحك والصّفّ المرصوص يتحرَّك نحو نقطة التّحرّر. كان أكثر الشباب في حالة أنسٍ وصفاءٍ معاً، ويعاهدون بعضهم بعضاً على الشّفاعة.

وصل الصّفّ إلى وراء ساتر ترابي مرتفع، أُمر الجميع بالجلوس وانتظار الأوامر، جلس معنا عدد من شباب «**قسم المعلومات**» في الفيلق، وكان «**أرقند**» على رأس الصّفّ.

بالقرب منه، جلس عدد من جماعة «**التخريب**»، «**درويش**» و«**سراج**» كانا معنا أيضاً. فهمنا من كلام «**شباب المعلومات**» أنّه ينبغي أن ننتظر عدّة ساعاتٍ لوصول شعار (نداء)«**العمليات**» لتكون المجموعات والفرق كلها قد أتمت التنسيق والاستعداد.

بعض الشباب فتحوا حقائب الظهر، واتكأوا عليها كمخدَّة، غطّوا في سبات عميق، بينما أكملنا، أنا وجواد، الكلام والضحك.

كانت العيون الدامعة تُفْضَحُ تحت نور القنابل المضيئة الخافت. جعلني هذا المشهد أشعر بقلة بضاعتي (حيلتي) في مقابل أولئك الشباب، كان الانتظار وتقطيع الوقت سيّدَ الموقف.

المكان يزداد زحمةً وفوضى بشكل تدريجيٍّ، أيقظ صوت القذائف بالقرب منا بعض الشباب النائمين.

عندما أدركوا أنّه قد حان وقت العمل، استيقظوا بنشاط، وأحكموا ربط الأحزمة. وفق أمر «**أرقند**»، قام «**جواد**» بتنظيم الصف، منذ ذلك الوقت انفصلنا أنا وجواد عن بعضنا، كنت وراء شباب التخريب. كان الخط مزدحماً جدّاً ولم يعرف أحدٌ السَّبب.

عند سماع نداء تكبير الشباب المترافق مع أصوات الانفجارات، علمنا بأنَّ العمليّات قد بدأت.

كانت الوحدات المستقرة إلى يسارنا قد بدأت بالعمليات، لكن الخط أمامنا لم يكن يشهد أي اشتباكات، إلى أن صدر الأمر: «**تأهّب**».

وقف «**سراج**» في مقدمة الصف، ثم تحرّك، انطلقنا مسرعين إلى الجانب الآخر من الساتر التّرابيّ، وبدأنا بالرّكض وراء «**سراج**».

كان مشهد اشتباكات «**كتيبة سليمان**» عجيباً ومؤثّراً. في ظلام الليل، صفٌّ من الشّباب يركضون باتجاه العدوّ. خطُّ رصاصِ الرشّاشات والـ«**دوشكات**» يمرُّ بين هؤلاء البواسل، وتقوم القنابل المضيئة بدور هندسةِ الإضاءة للمشهد.

أظهرت الانفجارات التي كانت تتوالى، منتهى الشجاعة عند هؤلاء الأبطال؛ فحين يسقط مجاهد أرضاً، كان رفيقه يحل مكانه فوراً دون تردّد.

لا يزال صفنا يركض باتجاه العدو، كلما أنارت القنابل المضيئة فوق رؤوسنا، انخفضنا وتابعنا ركض القرفصاء، كان أمامنا سهلٌ واسعٌ فسيح. خطوة بعد خطوة، كنا نشعر أن الحُفَرَ التي أحدثتها القذائف أمامنا تبدو كحفرٍ عميقة. وبالطبع كانت مأمناً جيّداً حين تنفجر قذيفة قريبة، إذ كان الشباب يقفزون ويحتمون داخل الحفر، قائلين: «**قد يصبح العدو سبباً للخير (رب ضارة نافعة)، إذا شاء الله**».

جلس شباب الصف بعد عبور مئات الأمتار ركضاً، والظاهر أنّنا كنَّا أمام حقل ألغام، بدأ شباب التّخريب (فرق الهندسة) بعملهم فوراً. ما كادوا ينزعون سبعة أو ثمانية ألغام، حتى انتبه العدوّ إلى تواجدنا، وبدأ بإطلاق النّار على الشّباب، الذين حاولوا الإقلال من إطلاق نيرانهم قدر المستطاع، لكي لا ينكشف مكان تموضع المجموعة أكثر فأكثر.

التجأ كل ثلاثة مقاتلين إلى إحدى حفر القذائف، وتابع جماعة التخريب عملهم في نزع الألغام. كانت رصاص الخطاط وطلقات الدوشكا، ورصاص «**الغرينوف**» تنهمر فوق رؤوسنا، لدرجة كنا نشعر معها بسخونة الرّصاص.

أُطلقت عدة قنابل مضيئة فوقنا، فإذا بالليل ينقلب نهاراً أحد شباب المعلومات المرحين، قال: «**يا ويلنا، صاروا ثلاثة**»[1]، وانفجرنا بالضحك.

عندما رأى سراج الوضع هكذا، قال لشباب التخريب: «**لافائدة، ينبغي أن نركض، ونعبر ميدان الألغام، وإلا فإنّه ستحصل مجزرة هنا، ويقتل الجميع**».

ترك الشباب عملهم في نزع الألغام، وبدون أيّ تأمُّلٍ أو تفكير،

(١) في إشارة إلى أن العدد «**ثلاثة**» يعني الانكشاف في الحرب. (١. نور أو حركة ملفتة ٢ ـ انتبه العدد ٣ أطلقت النار علينا.

بدأوا بالركض وسط حقل الألغام، وكذلك فعل شبابنا فقد نهضوا وانتظموا بالصف، وركضوا وراءهم. في كل لحظة كان من الممكن أن تضغط قدم على لغم وتقطع، لكنّ أحداً لم يكن يفكّر بروحه وحياته، الكل كانوا مسلّمين أمرهم لله ومستعدّين للشهادة.

لعبة «الغميضة!»

أثناء عبور حقل الألغام، اشتبكنا مع العدو. اشتدّت الاشتباكات أكثر فأكثر دقيقة بدقيقة. لقد رأى العراقيّون صفنا، وبدأوا بإطلاق النار علينا بشكل مباشر، أصابوا أحد الشباب، سقط أرضاً، وحلّقت روحه نحو الملكوت الأعلى. أضاءت إحدى القنابل المضيئة السّماء فوق رؤوسنا، ظنّ الشّباب أنَّ رفيقنا قد انبطح، لكنّني كنت أعلم بأنه استشهد، فصرخت بهم: «**لقد استشهد، تابعوا الركض**». نهضوا وانطلقوا مسرعين، استشهد عدد آخر؛ فقد انفجرت الألغام بعدد من الشباب وسقطوا شهداء، الأمر الذي سبب انفراط نظم الصف المرصوص، فخرج عدد من الشباب من سير الصف وانفصلوا عنّا.

كانت جثامين شـهداء كتيبة «**مالك الأشتر**» ملقاة في حقل الألغام منذ البارحة، ما زاد في تعقيد المشـهد بالنسبة إلينا. لكنَّ الجميع قد عقدوا العزم على المضـي، وكما قال أحد الشباب: علينا أن نسملح[1]

(١) نسملح (تستعمل في لعبة «**الغميضة**» وتدل على وصول اللاعب إلى المكان المحدّد وربح اللعبة).

فـي خندق العراقيين إيذاناً بانتهاء لعبة الغميضـة. وعندما لمحت رصاصـات الخطـاط، وهـي تمـرُّ بيـن الشـباب، ورأيتهـا تفترس صـدور الشـهداء، تلوت الآية المباركة: ﴿**وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدّاً وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدّاً...**﴾ ركضـت قافزاً بسـرعة منتظراً صدور «**ورقة عبوري**».

عبر نصف عناصر الكتيبة من جهة أخرى، ونجحوا في الوصول إلى دشم العدو، كانت الخنادق تتهاوى واحداً بعد الآخر، عبرنا حقل الألغام، علقنا في نقطة كانت عبارة عن حفرة قذيفة، التجأنا إليها أنا وعدد من الشباب. في هذه الأثناء، سقط «**مهدي برستاش**» جريحاً بيننا، وهو من قدامى المحاربين والمخلصين في الجبهة، طلب مني أن أضمّد يده الجريحة، فتحت في تلك المعركة الكوفيَّة التي كانت هدية من «**جواد سليماني**»، وربطت بها يد «**مهدي**»، حين كنت أحكم الرباط، اشتد وجع مهدي، فقال مازحاً: «**لقد قالت لي أمي ألّا أذهب إلى الجبهة، ليتني سمعت كلامها، ولم آت**». وانفجرنا جميعاً ضاحكين.

في الحقيقة، لا يمكن للإنسان هناك أن يدّعي لنفسه أي شيء. في كل لحظة، يرى من المعنويات والإيثار ما يجعله يخجل من نفسه أكثر فأكثر. هناك، وخاصة في تلك اللحظات، كان الوقت الأفضل،

والزمان الأمثل للامتحان. لا يوجد أفضل من تلك الأوضاع ليدرك الإنسان مدى سعته الوجودية، وآفاق نفسه، ويفهم «**إن كان رجلاً والرجال قليل**».

في تلك اللحظات يمرُّ الماضي أمام عيني الإنسان، وتعبر كل أعماله في ذهنه، يتضح المستوى المعنوي للإنسان، تظهر حدود إرادته وعزمه، وتتكشف كل أوراقه للعلن. لكن مع كل سيئاتنا، فالشكر لله بأنّنا إلى جانب هؤلاء الشباب الخُلّص، هناك شباب بلغوا سنَّ التكليف في الجبهة، لكن لا يمكن تصوّر مستوى معرفتهم وروحهم العالية.

الله أكبر

حاصر شبابنا الجنود العراقيّين، فلاذ بعضهم بالفرار، واستسلم آخرون، فيما استمرَّ البعض القليل من العراقيين العنيدين بالقتال، وخاصة ذلك القنّاص الذي لم يكن يسمح لأحد بالنّهوض، فقرّر الشباب أن ينقضوا دفعة واحدة، ويخرجوا من الحفرة وينهوا أمر خندق القناص.

قبل أن نقوم، داهمنا رشق رصاص، أصاب بعض أيدي وأرجل الشباب بجراح. في هذه الأثناء نهض عراقيٌّ وعاجلنا بقذيفة «**آربي جي**» مرّت بالقرب منّا، وأصابت قدميَ «**جواد سليماني**» وانفجرت بها.

تسمّرنا في مكاننا لا ندري ما العمل،... يا إلهي، فرِّج عنّا... اجعل لنا مخرجاً... يمكن القول بأنّ الشّباب قد بوغتوا، فجأة نهض «**أبو الفضل حبيبي**» بقامته الرياضية من بين الشّباب، وهجم بقنبلة يدوية، دوَّت صرخة «**تكبير**» دافعة الشّباب للقيام بشكل عفويّ، نهض

الجميع وهجموا على دشم العدوّ، وكأنّهم قد جدّدوا معنوياتهم، رمى «حبيبي» قنبلته اليدويّة داخل خندق القناص، كان الانفجار رائعاً لدرجة دفعت بالشباب لإطلاق التكبير عالياً صادحاً في سماء المنطقة.

«الموت لصدّام»

قفز الشباب واحداً تلو الآخر لتطهير الخنادق والدشم، كانوا يصرخون «**في أمان الإسلام**» كي يخرج العراقيون ويسلموا أنفسهم. تموضع الشباب داخل القناة. كانت أصوات «**الله أكبر**» تصل إلينا من أنحاء المنطقة كافة. لقد سقط خطّ العدو بأيدينا بشكلٍ كاملٍ.

قام عدد من الأخوة بتقسيم الذخائر والقنابل بين الشباب. بعد سقوط خطّ التّماس دخلت جرّافات وحدة الهندسة بسرعة، وبدأت بالعمل فوراً فيما الرصاص ينهمر عليها. عندما علمنا أن لا عمل لنا، فتحنا عدة زجاجات عصير فاكهة، وتناولناها مع بعض الشباب، وجلسنا في القناة نتحدّث، وكأنّه لا حربَ ولا عمليات. ! تكلّمنا عن الشغل والتجارة والمهن. استخبرنا عن أسعار الدّرّاجات النّاريّة، وختمناها بالسّياسة والحرب.

و.. مضت دقائق هكذا.

وكأنّ العراقيين كانوا قد استعدّوا مسبقاً للانسحاب، ونظّموا

صفحة أهدافهم على نقاط القناة، وبدأوا سريعاً بالقصف المدفعي والصاروخي للمنطقة. ملأت رائحة الدخان والنار المكان. تتالت القنابل المضيئة لتنير أجواء المنطقة.

كان بعض العراقيين قد اختبأوا في خندق بالقرب منّا، ولم ننتبه لوجودهم. عندما كنّا مشغولين بالحديث مع بعضنا، خرجوا فجأة، وبدأوا بالرّكض نحو المواقع العراقيّة.

صرخ أحد الشباب لرؤيتهم قائلاً: «**لصوص، لصوص، أمسكوهم**».

وبدأ بإطلاق النار عليهم، ولم نستطع أن نعرف لشدة الظلام، إن كانوا أصيبوا، أم نجحوا بالفرار. بين ساترنا، والساتر العراقيّ، كنا نسمع صراخ جريح، لم نستطع تمييزه إن كان إيرانيّاً أم عراقيّاً لبعده عنا.

لم نستطع الاقتراب منه بسبب تبادل الرصاص.

عندما خفّ إطلاق النار نسبيّاً، تشجّعت و«**سلّمتها ربانية**» واتجهت إلى ناحية الصوت لمعرفة من هو صاحبه.

ركضت ومعي أسلحتي، عندما وصلت إليه، رأيته، عراقيّاً أصيب بظهره، لا يقوَ على الحركة، كان الرّصاص لا يزال يصفر بالقرب منّا، أمسك بقدمي وقال كلمات لم أفهمها ولكنه كان يطلب المساعدة، فقرّرت نقله إلى القناة مهما حصل. فلا مكان للتفكير

في هذا الأمر. سحبته بيديه وببطء وحذر، أوصلته إلى القناة، ساعدني الشباب لإدخاله الخندق، للتعرّف عليه بشكل أفضل، كان يكرّر الدعاء لنا ويقول: «**الموت لصدام**».

أرانا صورة زوجته وأولاده كي نشفق عليه أكثر، يظهر من شكله أنّه من ذوي الرّتب العالية. استدعينا أحد المسعفين لتضميد جراحه، ثَقُلتْ عيناي من شدّة النّعاس. فألقيت رأسي على أرض القناة، وغرقت في نومٍ عميقٍ. بعد نصف ساعة، هطلت الأمطار فبلّلت المنطقة كلها، وخاصةً داخل القناة. عندما استيقظت وجدت أنني كنت أتكئ على قدم جثة عراقيّ. نهضت، وذهبت إلى الساتر الترابي الذي لجأ إليه الشباب.

إنّه مطلع الفجر، صلّيت قاعداً، ومغبراً، دامياً موحلاً. بعد الصلاة، رتّبنا أوضاعنا وانتظرنا بدء القصف العراقيّ. في هذه الأثناء حضرت عدة شاحنات لنقل جثامين الشهداء والجرحى، وإحضار المعدّات والمؤن إلى خطّ النّار. أحضروا لنا فطوراً متنوّعاً، اجتمعنا لتناوله. صرنا نضحك لرؤية الأسرى العراقيين عندما كانوا يُنقلون إلى الخلف، وكأنّهم فهموا لماذا نضحك عليهم، فضحكوا بدورهم ملوّحين لنا.

لقد اختفى عددٌ من الشباب في الليلة الماضية، ولا خبر عنهم. لم أدر ماذا حلّ بـ«**جواد سليماني**» بعد أن جُرح، قال أحد الشباب بأنَّ «**أرقند**» قد استشهد أيضاً.

ازدحم الخط، شباب «**ضد الدروع**»، شباب «**ذو الفقار**»، وخلاصة

القول إن كل الوحدات كانت هنا. كذلك، كان فيلق «**سيد الشهداء**» يريد لعملنا هنا أن يستمر، فنقل عدداً من كتائبه من بين السواتر الترابية نحو العراقيين، والأعجب من كل هذا، كان هناك حضورٌ للمراسلين الأجانب الذين جاؤوا لإعداد تقارير عن الجبهة وخط التماس، ضحكنا كثيراً بسببهم. كان «**أبو الفضل حبيبي**» يسيّر أمامه أسيراً عراقيّاً، ويستخدمه كعامل اتصال لاسلكي ويقول: «**قلت له عدة مرات بأنّك أسير، وينبغي أن تؤخذ للخلف، ولكنّه أصرّ بأن يبقى هنا لمساعدتنا!**».

جاء «**العم عابدي**» بشاحنته التويوتا، وصار يجمع الأسلحة والتجهيزات للكتيبة، كان شباب التعاون (الدعم) مشغولين بنقل جثامين الشهداء إلى الخلف، كانت تويوتا التعاون تقف بالضبط أمام مدخل خندقنا، وكانت جثامين الشهداء توضع بشكل مرتّبٍ إلى جانب بعضها بعضاً، كانت الجثامين جذّابةً ورائعةً لدرجة يحلو للإنسان أن يلقي بنفسه إلى جانبها، ويتناول أطراف حديث قلبه معها.

بعد قليل تجمّع الشباب حول التويوتا، وكأنّها مزارٌ، والحقّ أنّ الشهيد يستحق الزيارة. فجأة قال أحد الشباب: «**مبارك لكم منزلكم الجديد، اذكرونا ولا تنسونا، خذوا بأيدينا إلى هناك أيضاً**». سلب كلامه سكينة الجميع، وارتفع صوت البكاء عالياً.

وداع «شلمجة»

عند الغروب، وصلت عدة شاحنات «**تويوتا**» لنقل شباب الكتيبة إلى الخلف. انتهت مهمة كتيبتنا، وبعون الله، فقد كُسر طلسم السّواتر التّرابيّة ذات الشكل «**ن**»، والتي كانت حتى ليلة الأمس عصيَّةً على الفتح.

كانت الشمس تنزل بهدوء شديد، وكنا نبتعد عن خط التماس، أحسسنا بالغربة، لم نكن نتوقّع أن يحين وقت رحيلنا عن «**شلمجة**» بهذه السرعة، كنا نودّع «**شلمجة**»، وهذه المرة أيضاً، تركت كتيبة «**كميل**» بعضاً من جواهرها الثمينة على تراب تلك المنطقة.

في أمان الله يا كربلاء «**شلمجة**»

في أمان الله يا «**قناة السمك**»

سواتر «**ن**» الترابية

في أمان الله أيها «**الشهداء**»

في أمان الله يا «**أرقند**»

في أمان الله يا «**شلمجة**»

في صباح اليوم التالي كنا في «**كرخة**»، استضافتنا «**كرخة**» بكل خضرتها ونضارتها عملياتٌ ليومٍ واحدٍ خفيفة نظيفة، استطاعت فتح أهم موانع «**شلمجة**» وهي السواتر «**ن**» التّرابيّة، ومكافأةً للشباب كانت مأذونية تشجيعية، وها هم يحضرون لباسهم استعداداً للرحيل قد يطول غيابهم، بل ربما لن يرجعوا إلى «**شلمجة**» أبداً.

ولذلك أقمنا، بهمّة الشباب ونشاطهم، سهرة عامرة، بالأنس والإلفة. تحدّثنا فيها للمرة الأخيرة مع تلك الأرض المفعمة بالذكريات.

انطلقنا في صباح اليوم التالي من «**دوكوهه**» نحو طهران، أخذت أغراض وحقيبة «**جواد سليماني**» الذي جُرح في العمليّات كي أوصلها إلى بيته.

بعد لقائي بعائلتي، حملت حقيبة «**جواد**»، وتوجّهت إلى منزل «**آل سليماني**»، عندما وصلت إلى أول الحي، كانت الصدمة، ماذا يعني هذا؟ هل يمكن أن أصدِّق؟ ما سمّرني مكاني لم يكن سوى صورة «**جواد**» إلى جانب أخيه الشهيد «**علي**»، ملصقٌ يزفه شهيداً. كان بيته مزداناً بالمصابيح، كاد قلبي ينفطر، وحاولت إقناع نفسي أنّني أتوهّم ما أرى...لكن لا فائدة، واحسرتاه!...

«تعال، تعال»

كان «**جواد**» قد ارتشف كأس الوصال في ليلة العمليّات تلك، بعد إصابته بقذيفة الـ«**آر بي جي**» في قدمه. حين أعطيت حقيبة جواد إلى أخيه الصغير وأدخلها إلى المنزل، ارتفع صوت النّحيب عالياً. ابتعدت من هناك بهدوء، كانت آخر كلمات «**جواد**» لا تزال تتهادى على مسمعي،: «**أمّي أنت تقولين لا تذهب، ولكن هناك من يقول لي: «تعال، تعال»**.

فيما بعد، حين أمعنت البحث والتدقيق في أعماق قلبي، وجدت بأنّ شهادة «**جواد**» كانت أكبر ضربة تلقّاها قلبي.

أتذكّر «**جواد**» دائماً كأفضل صديق لي، وأطلب منه أن يستمر، كما كان في دار الفناء، رفيقاً وشفيقاً، فيبقى كذلك في دار البقاء.

سيبقى اسم «**كتيبة كميل**»، و«**الكميليّين**»، متألّقاً سامياً في سماء الشّهادة والشّهامة، ولكن لا يمكن لأي بيان وكلام أن يصف مقدار ذرّةٍ واحدةٍ من إخلاص وصفاء مدرسة العشق تلك.

مناجاة على ضفة الذكريات

اليوم هو الثاني والعشرون من شهر «**بهمن**» للعام١٣٦٨ هـ.ش. ١١ شباط ١٩٨٩م.

وها أنا جالس على حافة «**كرخة**»،

لا خيمة منصوبة ولا عاشق يمرُّ من هناك،

أنا وحدي مع ذكرياتي الكثيرة.

أضع رأسي على الأرض،

ألصق أذني برمل الصحراء،

لعلّي أسمع صوت وقع أقدام شبابٍ احتضنوا الأرض في قلوبهم، لعلّي أسمع وقع أقدام معروفة، وقع أقدام مؤنس أو نديم،

أجيل النظر في كل الجهات، لعلَّ عابراً يمرُّ من هناك، ممن رائحة أريجهم معروفة.

أنتظر أن يخرج أحد من حسينية الكتيبة، ويمرُّ بالقرب منّي، أو يعبر أحدهم وقد التحف بغطائه حامِلا مصباحاً بيده، وسائراً نحو

الصحراء، أشعر بأنّني الأتعس بين الجميع.

ليتني! ولمرة أخرى، فقط مرة واحدة أخرى، أسمع مكبّر الصوت من قسم إعلام الكتيبة يبث مناجاة نورانيّة.

ليتنا نجلس مرة أخرى مع تلك المجموعة المخلصة حول مأدبة الطعام لنرنِّمَ معاً دعاء الطعام.

ليتني أحضر مرة أخرى ليلة العمليّات. لكن لا، ما مضى، قد مضى.

غاب ذلك الزمان، رحل ولن يعود، فقط لوحة الكتيبة واقفةٌ في مكانها:

نقطة الشهيد معصومي
أهلاً وسهلاً بكتيبة «**كميل**»
حدّثني، مع «**علي**»، عن أنصار «**كميل**»
اسم الكتيبة «**كميل بن زياد**»
لن تغيب عن البال أبداً
ذكريات ترافقت مع الهمّ
صارت على قلب العالمين كالمرهم
ذكريات الأحباب في بالي
من الشهداء والمحلِّقين في الأعالي
«**عزيزي**» وسجوده في تلك الناحية

حيث رمى خلفه كل الأوهام والخيالات
وهناك «**رنجه**» ذاكراً الله
من المساء وحتى وقت السحر
حين كنا نتلوا معاً سورة الواقعة
نذكر «**زندي**» والآخرين
في حضن أرض مفعمة بالحنان والصفاء
كان «**موسوي**» عاشقاً لليالي الدعاء
والنتيجة أن «**الحبيب**» استدعى «**الأحبة**»
والحرب تحدّت الظّلم
لقد تعلّم «**أسرار الشهادة**»
كل من احترق في عشق وجه الحبيب
حدّثني مع «**علي**» عن أنصار كميل
كلنا موالي «**علي**» حباً وطواعية.

ملحق الصور

FARS

2013/12/08

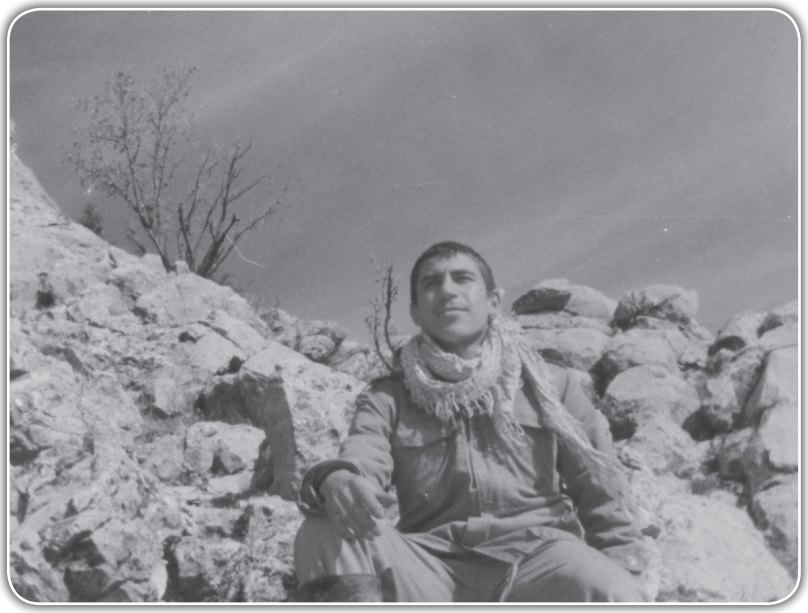

فاخلع نعليک
2013/12/07

انا خلع نعلیک

سلام بر
فکه
سرزمین ملائک

Katebeshohada.blogfa.com
گردان کمیل ، گروهان شهید مدنی ، دسته فاطمه الزهرا سلام الله علیها
موقعیت : گردان کمیل

Katebeshohada.blogfa.com
موقعیت : گردان کمیل
گردان کمیل ، گروهان شهید مدنی ، دسته فاطمه الزهرا سلام الله علیها

Katebeshohada.blogfa.com
موقعیت : گردان کمیل

موقعیت : گردان کمیل
Katebeshohada.blogfa.com

2013/12/07

فهرس

تقديم ٥

مقدّمة المؤلِّف ٧

«**دو كوهه**» ٩

القبر والشقائق البريّة ١٥

ليالي «**كرخة**» وأسحارها ٢١

بشارة المطر ٢٥

«**ما شاء الله.. حزب الله**» ٣١

عطر «**كرب وبلاء**» ٣٥

الرصاصة الأولى ٣٩

سفر العشق والشهادة ٤٣

الماء.. الماء ٤٩

«**تحيا كتيبة كُميل**» ٥٥

أيّها العائدون، أين الشهداء؟ ٥٩

«**تنابل الإعلام!**» ٦١

ليلة الغرباء ٦٥

اللعب بالنار ٧١

وداع الليالي المقمرة ٧٥

«**لمّ الشمل**» ٧٩

العشّاق والعلماء ٨٣

قيام! ٨٩
ليلة العمليات ٩٥
«يا بن الحسن!» ١٠١
الاشتباك ١٠٧
مثلّث الشهادة ١١٣
روضة الرضوان ١١٩
طائرة لكلّ مقاتل! ١٢٣
الشظيّة الذهبية ١٢٧
انبطِحوا! ١٣١
«إعادة البناء» ١٣٥
قسم الطوارئ ١٣٩
«ما زلت حياً؟» ١٤٣
طهران تحتفل ١٤٧
لقاء العاشقين ١٤٩
هيهات هيهات ١٥٣
تأهّب! ١٥٧
لعبة «الغميضة!» ١٦٣
الله أكبر ١٦٧
«الموت لصدّام» ١٦٩
وداع «شلمجة» ١٧٣
«تعال، تعال» ١٧٥
مناجاة على ضفة الذكريات ١٧٧
ملحق الصور ١٨٠